الجَوَاهِرُ المَخْفِيَّة
عَلَى السَّفِينَةِ الرِّفَاعِيَّة

وَيَتَضَمَّنُ نُصُوصًا وَرَسائِلَ وَكُتُبًا
مِن صَحِيحِ التُّرَاثِ الرِّفَاعِيِّ
تُنْشَرُ لأَوَّلِ مَرَّة

تحقيق
مَاجِد حَمِيد البَيَّاتِي

BOOKS - PUBLISHER
كتاب - ناشرون
بيروت - لبنان

الجَوَاهِرُ المَخْفِيَّة
عَلَى السَّفِينَةِ الرِّفَاعِيَّة

وَيَتَضَمَّنُ نُصُوصًا وَرَسَائِلَ وَكُتُبًا
مِنْ صَحِيحِ التُّرَاثِ الرِّفَاعِيِّ
تُنْشَرُ لِأَوّلِ مَرَّة

تَحْقِيق
مَاجِد حَمِيد البَيَّاتِي

AL-JAWĀHIR AL-MAḪFIYYA ʿALA AS-SAFĪNA AR-RIFĀʿIYYA	الجواهر المخفية على السفينة الرفاعية

Author : A Group of Authors — **المؤلف :** مجموعة من المؤلفين

Editor : Majed Hamid Al-Bayyati — **المحقق :** ماجد حميد البياتي

Classification: Sufism — **التصنيف :** تصوف

Year: 1447 H. - 2025 A.D. — **سنة الطباعة:** ١٤٤٧هـ - ٢٠٢٥م

Pages: 440 — **عدد الصفحات:** ٤٤٠

Size: 17×24 cm — **قياس الصفحات:** ١٧x٢٤ سنتم

Printed in: Lebanon — **بلد الطباعة : لبنـــان**

Edition: 1st — **الطبعة : الأولى**

BOOKS - PUBLISHER
Beirut-Lebanon بيروت - لبنان | كتـاب - نـاشرون

Mazraa, Ras Nabea, Mohamad Al Hout street, Katerji building, First Floor, Beirut-Lebanon
Tel:+961 76 944 855 - P.O.Box: 11-374 Riyad Al-Soloh
Email:books.publisher2019@gmail.com

ISBN-13: 978-614-496-438-5

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الحمدُ لله الذي لا تُستفتح الكتب إلا بحمده، ولا تُستمنح النعم إلا بواسطة كرمه، والصلاةُ والسلامُ على سيد الأنبياء محمد رسوله وعبده، وعلى آله الطاهرين وأصحابه الطيبين من بعده.

أما بعدُ: فهذا كتابٌ يشتملُ سلاسلَ الكتبِ والنفائسِ من جواهر التراث الرفاعي القديم الموثق في التاريخ، يتعلَّقُ بسلطان الأولياء، وشمس الأقطاب الأتقياء، ذي النسب الشريف في النبلاء، والحال العريق في أركان الطريق، سيدي الإمام أحمد الكبير ابن الرفاعيّ الحسينيّ الصوفيّ السيد الشيخ الحقيق، رحمه الله ونور ضريحه وأعلى في العَالَمِينَ ذكره، وقد تضمّنَ مجموعةً مباركةً (سبعة مراجع) أغلبها يُنشر لأول مرَّة؛ هي الآتي:

الأول: متن العقيدة الرفاعية.

والثاني: تجريد أخبار الطائفة الرفاعية من كتاب (تفاح الأرواح).

والثالث: النور الهادي.

والرابع: تجريد الأخبار الرفاعية من كتاب (خلاصة المفاخر).

والخامس: جواب المراعي لسلف الشيخين عبد القادر وابن الرفاعي.

والسادس: تذكرة محمد بن صالح الرومي الرفاعي.

والسابع: شرح قصيدة يا من تعاظم للإمام الرفاعي.

وكنتُ قد تحدثتُ بإسهاب وتفصيل – في مقدمة كتابي[1] – عن جملة من المراجع الرفاعية الصحيحة الموثقة تاريخيًا؛ والمتمثلة بالوجه الذي أخفاه التاريخ من صفحات

(1) الأصل: (ص31 – 46). **ملحوظة:** حيثما أُحيل إلى: (الأصل) فأعني به كتابي: (السفينة الرفاعية) لأن الإحالة إليه ستتكرر كثيرًا، لذا اقتضى التنبيه على ذلك!

سيرته النقيَّة الصادقة وسيرة آله وأصحابه وأتباعهم ﵃، وذكرتها بحسب سِنِيّ وفيات أصحابها، وهي هذه مع إجراء تعديل بسيط على مصدرين أصابهما الخطأ حين التوثيق:

1- إرشاد السلوك للمريد الهادي الواعي: (مخطوط).

2- البراهين من مقالات وارث الأنبياء المرسلين: (مخطوط).

3- مناقب ابن الرفاعي: (مطبوع).

4- ترياق المحبين في سيرة سلطان العارفين: (مطبوع).

5- تفاح الأرواح ومفتاح الأرباح: (مطبوع)؛ (وقد جردنا منه: أخبار الطائفة الرفاعية في هذا الكتاب).

6- النور الهادي: (وقد تم خدمته لأول مرَّة، وهو في جملة هذا الكتاب).

7- خلاصة المفاخر: (مطبوع)؛ (وقد جردنا منه: الأخبار الرفاعية في هذا الكتاب أيضًا).

8- شفاء الأسقام في سيرة غوث الأنام: (مخطوط).

9- جواب المراعي لسلف الشيخين عبد القادر وابن الرفاعي: (وقد تم خدمته لأول مرَّة، لينضمَّ إلى جملة هذا الكتاب).

10- جلاء الصدى في سيرة إمام الهدى: (مطبوع).

11- تذكرة محمد بن صالح الرومي الرفاعي: (وقد تم خدمته لأول مرَّة، لينضمَّ إلى جملة هذا الكتاب أيضًا).

12- أنيس المخزون والسر المكنون في مناقب السيد شعبان: (مخطوط).

13- شرح قصيدة يا من تعاظم للإمام الرفاعي: (مطبوع)؛ (وقد تم استلاله وخدمته وضمه إلى جملة هذا الكتاب).

14- نسب السيد أحمد الرفاعي: (مخطوط).

15- موسوعة سيرته وأخباره في كتب التاريخ والتراجم والأنساب والسير: (مطبوع)؛ من خدمتنا المجردة (جمعًا فقط): ببليوغرافيا.

والآن وقد انتهينا من تحقيق هذا الكتاب المتواضع بنشر هذه الرسائل لترى النور؛ فلم يبقَ أمامنا - معاشر محققي التراث الرفاعي - سوى العمل على نشر (خمس كتب)

فقط هي: (الإرشاد والبراهين والشفاء والأنيس والنسب)، فتنتظر من يقوم بتحقيقها ونشرها؟!

وقد جعلتُ لكلِّ كتاب منها مقدمةً خاصةً به تختلف عن الأخرى؛ حيث بيّنْتُ فيها - بطبيعة الحال - منهجية التعامل معه وطريقة العمل عليه، ليكون كل كتاب مستقلًّا بحد ذاته عن الذي يليه، وقمتُ بالضبط والترتيب والتحقيق والتخريج والعزو والتعليق والتوثيق، ثم ذكرتُ قائمة بالمصادر والمراجع المستخدمة في التحقيق، وبعدها عملتُ لَهُ فهرسًا تفصيليًّا ليسهل الرجوع إلى موضوعاته.

هذا؛ وأسألُ الله تعالى الإخلاص والقبول والتوفيق، ولا أنسى وجوب تسجيل كلمة الشكر والتقدير والعرفان بالجميل للأستاذ السيد: (عبد القادر بن السيد عبد الكريم نوشاد الحيَّاتي) مُنضّد الكتاب، والحمد لله رب العالمين.

وكتبه
الفقير إلى الله تعالى الغني به
خادم التراث الرفاعي
ماجد البياتي
الخميس: 3/ذي القعدة/1446هـ
يوافق: 1/أيار - مايو/2025م

(1)

متن

العقيدة الرفاعية

مسندًا إلى الإمام أحمد الرفاعي (ت578هـ)

يرويه عنه وجادة:

أبو الفتح بن محمد الواسطي

الشافعي الرفاعي (كان حيًّا عام: 676هـ)

(يُنشر لأول مرة)

تحقيق

ماجد حميد البياتي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ لله الملك المعبود، القديم الوجود، العميم الجود، المُتعالي عن الأمثال والأشكال والجهات والحدود، الحيّ العليم السميع البصير فلا يخفى عليه دبيب النملة السوداء في الليالي السُّود، ويسمعُ حِسَّ الدود في خلال العود، ويرى جريان الماء في باطن الجلمود، وتردُّد الأنفاس في الهبوط والصعود، القادرُ فما سواه فهو بقدرته موجود، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده؛ الظاهرُ بوجوده الواحد في تعدُّدِ مخلوقاته وتكثير مصنوعاته، وأشهدُ أنَّ سيدنا محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ؛ بلغ العُلى بكماله، كشف الدُّجى بجماله، عَظُمت جميعُ خصاله، صلوا عليه وآله، اللهم صلِّ وسلم وبارك وتحنَّن وتعطَّف على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعدُ: فهذا متنُ العقيدة الرفاعية؛ يُنشر لأول مرَّة، مُسندًا إلى شيخ الطريقة العلية، وقطب المعارف العرفانية، وإمام الحقيقة الربانية، القائم بشريعة جده المُصطفى ﷺ، السائر على قدمه المرتضى، المقتفي أثره في السرّ والعلانية، السيد السند أحمد الكبير ابن الرفاعيّ الحسينيّ الأشعريّ الشافعيّ المشتهر قدّس سره ونفعنا ببركته.

وقد جمعته من كتابين موثقين هما: (إرشاد السلوك وجلاء الصدى)[1]، ليكون عونًا للطالبين، ومنهاجًا للمريدين، ونبراسًا للسائرين، في عقيدة الموحدين؛ على طريقة أهل السنة والجماعة جمهور المسلمين، فقد تميّزَ بسهولة عباراته، وسلاسة معانيه، ورشاقة

(1) ترجمنا لهما في: (مقدمة الأصل) فليُراجع.

أسلوبه بإيجاز واختصار؛ لِيَقرُبَ على المُتعلّم درسُهُ، ويسهل على المُبتدئ حفظُهُ، فاستحقَّ صرف الهمة إليه، وإكباب الناس عليه، واهتمام العلماء به شرحًا وتدريسًا.

ولا يخفى أنَّ شرف العلم وفضلَهُ بشرف المعلومِ وقدرِهِ، فلما كان علم التوحيد - المعروف أيضًا بالفقه الأكبر - يُفيدُ معرفة الله تعالى على ما يليق به، ومعرفة رسوله على ما يليق به، وتنزيه الله تعالى عمّا لا يجوز عليه، وتنزيه الأنبياء عمّا لا يليق بهم، كان أفضل من علم الأحكام، بل هو أجلّ العلوم قدرًا، وأعلاها شرفًا وذكرًا، وأعظمها مثوبةً وأجرًا، وهو أصل العلوم، وشرط القبول، وسبب السعادة في الدارين.

ولقد كان لعلماء المسلمين بنشرهم التوحيد وتآليفهم فيه الفضل العظيم على توالي السنين في صون عقائد المسلمين من تشكيك المشككين، وإضلال المضلين، وإبطال المبطلين، لما صنّفوا من المتون نثرًا ونظمًا، فكان لها الأثر البالغ في حفظ قواعد أصول الدين ونشرها، منها على سبيل المثال لا الحصر: (الطحاوية والنسفية والسنوسية والعضدية والمسايرة والمواقف والمقاصد وأم البراهين والخريدة البهية وجوهرة التوحيد) وغيرها، ولعل هذا المتن: (متنُ العقيدة الرفاعية) يلقى رواجًا وقبولًا كما لاقت هذه المتون رواجًا وقبولًا عند المسلمين، ولا يخفى أنَّ جميع هذه المتون المباركة مقررات على: (مذهب الأشاعرة والماتُريديّة وما يوافقهما) في تقرير عقائد السواد الأعظم من أتباع المذاهب الفقهية الأربعة، وهم في تقرير مسائل الاعتقاد ثلاثة اتجاهات:

المذهبُ الأول: مذهب الحنفية؛ ويُسمى بالماتُريديّة نسبة للإمام أبي منصور محمد الماتُريديّ.

المذهبُ الثاني: مذهب الشافعية والمالكية وأكثر الحنابلة؛ ويُسمى بالأشعريّة نسبة إلى الإمام أبي الحسن علي الأشعريّ.

المذهبُ الثالث: مذهب بعض فضلاء الحنابلة؛ ويُسمى بالأثريّة.

ومن المعلوم أنَّ المصيب في أصول الدين واحد، والاختلاف في أصول الدين لا يجوز بعكس الاختلاف في الفروع والأحكام؛ لأنها مبنيّةٌ في معظمها على الظنّ،

أما أصول الدين التي منها أصول العقائد فمبنيّةٌ على اليقين، ولا يخفى أنَّ هناك بعض الاختلافات بين هذه المذاهب السُنية الثلاثة: (الماتُريديّة والأشاعرة والأثريّة)، وهي اختلافات فرعية لا في أصول الدين، بل هي من باب ما يجوز فيه الاجتهاد والاختلاف؛ التي لا نصَّ فيها، والمبنيّةُ على النظر والاجتهاد السائغ، وأكثرها يُعدُّ من الخلاف اللفظيِّ (الشكليّ) في تحرير المسائل العقدية.

وجمهور علماء المسلمين على مرِّ التاريخ الإسلامي هم من الأشاعرة والماتُريديّة، حتى لا تكاد تجدُ أحدًا من أهل العلم من المفسرين والمحدثين والفقهاء والأصوليين والمتكلمين وأهل اللغة والتاريخ والقادة والمصلحين وغيرهم إلا وهم أشاعرة أو ماتُريديّة.

قال الإمام تاج الدين السبكي الشافعي: ((وهؤلاء الحنفية والشافعية والمالكية وفضلاء الحنابلة - ولله الحمد - في العقائد يدٌ واحدةٌ كُلُّهُم على رأي أهل السنة والجماعة))[1].

وقال الإمام أبو الفرج ابن الجوزي الحنبلي: ((ورأيت من أصحابنا من تكلَّم في الأصول بما لا يصلح، وانتدب للتصنيف ثلاثة: (أبو عبد الله بن حامد [المشهور بالوراق]، وصاحبه القاضي أبو يعلى [المشهور بالفراء]، وابن الزغواني)؛ فصنّفوا كتبًا شانوا بها المذهب، ورأيتهم قد نزلوا إلى مرتبة العوام فحملوا الصفات [الإلهية] على مقتضى الحِسّ...، حتى صار لا يُقال عن حنبليّ إلا مُجسّم...، لقد شان المذهب شينًا قبيحًا لا يُغسل إلى يوم القيامة...، فرأيت الردَّ عليهم لازمًا لئلا يُنسب الإمام أحمد ابن حنبل رحمه الله إلى ذلك))[2].

فهؤلاء هم السواد الأعظم من المسلمين في كل وقت وحين من الأشاعرة والماتُريديّة، الذين أقامهم الله تعالى لحمل هذا الدين، فصانوه من تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، حتى وصل للمسلمين صافيًا نقيًّا محفوظًا عن التغيير والتبديل، ولا ريب أنَّهم هم: (أهل السنة والجماعة)، فإنهم نقلة الدين والقرآن والحديث

(1) معيد النعم (ص117).

(2) دفع شبهة التشبيه ضمن كتاب العقيدة وعلم الكلام: (ص227 - 230).

والفقه واللغة وسائر العلوم، والطعنُ فيهم طعنٌ في الدِّين[1].

وكان جهدي المتواضع في خدمة هذا المتن، الآتي:

- ضبطُ النص على قواعد اللغة العربية والإملاء.
- عزوُ الآيات القرآنية إلى سورها في القرآن الكريم.
- وضعُ عناوين جانبية بين معقوفتين ليسهل حفظه.
- التعليقُ مجملًا على بعض المواضع للفائدة والإيضاح.

هذا؛ وتركتُ شرحَهُ المُفصلَ لأهل الاختصاص والتضلّع في هذا المجال. وقبل الشروع في المقصود: أسألُ الله العظيم أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به طلّاب العلم، وأرجو قارئي الكريم أن لا ينساني من صالح الدعاء بظهر الغيب، والحمد لله رب العالمين.

❖ ❖ ❖

(1) أفدنا بعض المقدمة من كتاب أسس العقيدة الإسلامية: (ص15 - 17).

النّص المحقّق
[إسناد عقيدة الإمام أحمد الرفاعي]

قال أبو الفتح بن محمد الواسطي[1]:

ورُوِيَ عنه ﷺ: ما وجدتُهُ مكتوبًا في كتاب من تأليف: (عمر بن أحمد) ﷺ، عن الثقات من أصحاب سيدي أحمد [عز الدين الصياد] قدّس سره أنَّه قال: سألت أخي سيدي محمدًا [شمس الدين رمانة القبان] ﷺ عن هذه المسألة؟ فقال: سألت والدي سيدي عبد الرحيم [مهذب الدولة والدين ﷺ] عن هذه المسألة؟ فقال: سألت خالي وسيدي أحمد [الرفاعي الكبير][2] قدّس سره عن هذه المسألة وقلت له: الناس يسألوني عن عقيدتي فما أقول لهم؟ فقال قدّس سره:

---

(1) تنبيه: أبو الفتح هذا هو غير أبي الفتح أحمد بن أبي الغنائم صدقة الواسطي دفين الإسكندرية، فصاحبنا كان حيًّا عام: (678هـ)، والثاني توفي عام: (634هـ)، وقد ترجمنا لهما في الأصل: (ص48 - 58) فليُراجع.

(2) ترجمنا لهم جميعًا في: (الأصل) سوى (عمر بن أحمد) فلم أقف على ترجمته فيما لديّ من مصادر.

[كل ما عدا الخالق فهو مخلوق]

أي عبد الرحيم، اعلم: أنَّ كلَّ ما عدا الخالق فهو مخلوقٌ؛ والليل والنهار، والضوء والظلام، والسموات السبع وما فيها من النجوم، والشمس والقمر، والأرض وما عليها من جبل وبحر وشجر، وأنواع النبات، وأصناف النبات والحيوانات، والضارّ منها والنافع، لم يكن شيءٌ من ذلك إلا بتكوين الله.

ولم يكن قبل تكوين الله للأشياء أصلٌ ولا مادةٌ، وكذلك الجنة والنار، والعرش والكرسي، واللوح والقلم، والملائكة والإنس، والجن والشياطين، لم يكن منها شيء إلا بتكوين الله تعالى.

وكذا صفاتُ هذه الأشياء من الحركة والسكون، والاجتماع والافتراق، والإطعام والمشروب والروائح، والجهل والعلم، والعجز والقدرة، والسمع والصمم، والبصر والعمى، والنطق والبكم، والصحة والسقم، والحياة والموت، كلُّ ذلك من مخلوقات الله تعالى.

وكذلك أفعالُ العباد واكتسابهم، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، كلُّ ذلك من مخلوقات الله تعالى، خلق كل شيء، وكلُّ ما لم يكن مخلوقًا وسيخلق فهو من مخلوقات الله لقوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم﴾ [فاطر: 3]، فالله تعالى خالق كل شيء: ﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ﴾ [القمر: 5] عَلِمَ العباد أو لم يعلموا لقوله تعالى: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء: 23]، يَفعل ما يشاء، ويَحكم ما يريد.

[صفات القدرة والإرادة والمشيئة]

والطاعاتُ والمعاصي بقضاء الله تعالى وقدره، وعبادتُهُ بإرادته ومشيئته؛ فإنَّ الطاعة مُقَدَّرَةٌ من الله تعالى بقضائه وقدره، وكذا المعصية، والمعاصي مُكَوَّنَةٌ مُقَدَّرَةٌ بقضاء الله تعالى وقدره ومشيئته لكنها ليست برضائه ومحبته ولا بأمره.

وما أرادَ اللهُ أن يكون كان بلا محالة، طاعة كان أو معصية، وهذا معنى قولنا: (ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن).

وإنَّ أمرَهُ لنا بالطاعة، وإرادتَهُ موافقة لعلمه ولأمره ونهيه، فمن هداه الله تعالى خلق الله فيه فعل الاهتداء، ومن لم يهده لم يهتد، وكل ذلك بمشيئة الله تعالى كما قال: ﴿يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾ [فاطر: 8].

واللهُ تعالى يُعطي العبد كما يُريدُ كان فيه صلاحُ العبدِ أو فسادُهُ، وغايةُ صلاح العبد ليست بواجبة على الله تعالى، بل إن كان فيه صلاح كان منه إحسانًا وتفضّلًا، وإن لم يكن ذلك كان منه عدلًا، فله الفضلُ والحمدُ.

ومقدوْرُ الله تعالى لا نهاية له، ولهُ في قدرته لطفٌ عامٌّ، والطاعةُ والإيمانُ توفيقٌ من الله بمعونته ﷻ، وكذلك المعاصي والكفرُ فهي بقضائه وقدره.

[صفات الله تعالى]

واللهُ تعالى قديمٌ ليس لوجوده ابتداءٌ، وباقٍ ليس لبقائه انتهاءٌ، حيٌّ لا بروح، عالمٌ لا بقلب وفكرة، قادرٌ لا بآلة، سميعٌ لا بأذن، بصيرٌ لا بحدقة، مُتكلّمٌ لا بلسان، إلهٌ في الأزل، (والحياةُ، والعلمُ، والقدرةُ، والسمعُ، والبصرُ، والكلامُ، والخَلقُ)، هو في التكوين صفاتٌ؛ وصفاتُهُ قائمةٌ بذاتِهِ، واللهُ تعالى قديمٌ بصفاتِهِ، وليس شيءٌ [من] صفاتِهِ مُحْدَثًا[1].

---

(1) فائدة: في مجمل صفات الله تعالى عند أهل السنة والجماعة:

اعلم عزيزي القارئ أنَّ علماءنا اتفقوا أنَّه يجب لله تعالى (عشرون) صفة، ويستحيل عليه تعالى أضدادها، وتلك الصفات العشرون هي التي قامت البراهين القطعية عليها تفصيلًا، فيجب على كل مُكلَّف بالغ عاقل معرفتها تفصيلًا، وهي تنقسم إلى: (نفسيةٍ وسلبيةٍ ومعانٍ ومعنويةٍ).

فالنفسيةُ (واحدة): هي (الوجود) وضده العدم.

والسلبيةُ (خمسة): هي (القدم) وضده الحدوث، (والبقاء) وضده الفناء، (ومخالفته تعالى للحوادث) وضدها مماثلته تعالى للحوادث، (وقيامه تعالى بنفسه) وضده احتياجه تعالى إلى محل، (والوحدانية) وضدها التعدد في الذات أو الصفات أو الأفعال، وسُمّيت سلبية: لأنها تنفي النقص عن الله تعالى أي: أنَّ كل واحدة سلبت (نفت) أمرًا لا يليق به ﷻ؛ فالقِدمُ سَلْبٌ لأولية الوجود، والبَقاءُ سَلْبٌ لآخرية الوجود... وهكذا، والحقُّ أنَّ الصفات السلبية لا تنحصر في هذه الخمسة، إذ من جملتها: أنَّه لا ولد له، ولا زوجة، ولا بسيطًا، ولا مركبًا، ولا في مكان، ولا زمان، ولا

=

=

جهة، وغير ذلك، وإنما اقتصروا على هذه (الخمسة) لأنها أمهاتها، وهذه الصفات لم يختلف عليها العلماء، بل يتفق الجميع على القول بها.

والمعانيُّ (سبعة): هي (الحياة) وضدها الموت، (والعلم) وضده الجهل وما في معناه، (والقدرة) وضدها العجز، (والإرادة) وضدها الكراهة، (والسمع) وضده الصمم، (والبصر) وضده العمى، (والكلام) وضده البكم.

والمعنويةُ (سبعة) أيضًا: هي (كونه تعالى حيًّا) وضده كونه تعالى ميتًا، (وكونه تعالى عالمًا) وضده كونه تعالى جاهلًا، (وكونه تعالى قادرًا) وضده كونه تعالى عاجزًا، (وكونه تعالى مريدًا) وضده كونه تعالى كارهًا لما يوجده، (وكونه تعالى سميعًا) وضده كونه تعالى أصم، (وكونه تعالى بصيرًا) وضده كونه تعالى أعمى، (وكونه تعالى متكلمًا) وضده كونه تعالى أبكم.

وهناك خِلافٌ شكليٌّ بين المذهبين في (الصفات المعنوية)، وأيضًا في صفة (التكوين) فقد رأوها الماتُريديّة ووافقهم الإمام الرفاعي بأنها صفة قديمة قائمة بذاته تتعلق بالممكنات وتؤثر فيها بالإيجاد على وفق الإرادة كالخلق والإحياء والإماتة والرزق والإشقاء والإسعاد، أما الأشاعرة فرأوها صفات حادثة لأنها إضافات واعتبارات بين القدرة والمقدور، ودليل المذهبين واحد هو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82].

فهذه هي أمهات الصفات التي أثبتها أهل السنة والجماعة لله تعالى ولا شيء غيرها، وفي جماع أبواب إثبات صفات الله ﷻ يقول الإمام البيهقي: ((وفي إثبات أسمائه إثبات صفاته، لأنه إذا ثبت كونه موجودًا، فوصف بأنه حي، فقد وصف بزيادة صفة على الذات هي: الحياة.

فإذا وصف بأنه قادر، فقد وصف بزيادة صفة هي: القدرة.

وإذا وصف بأنه عالم، فقد وصف بزيادة صفة هي: العلم.

كما إذا وصف بأنه خالق، فقد وصف بزيادة صفة هي: الخلق.

وإذا وصف بأنه رازق، فقد وصف بزيادة صفة هي: الرزق.

وإذا وصف بأنه محيي، فقد وصف بزيادة صفة هي: الإحياء.

إذ لولا هذه المعاني لاقتصر في أسمائه على ما ينبئ عن وجود الذات فقط.

ثم صفات الله ﷻ قسمان:

أحدهما: صفات ذاته، وهي ما استحقه فيما لم يزل ولا يزال.

والآخر: صفات فعله، وهي ما استحقه فيما لا يزال دون الأزل.

فلا يجوزُ وصفَهُ إلا بما دلَّ عليه: كتاب الله تعالى أو سنة رسول الله ﷺ أو أجمع عليه سلف هذه الأمة.

=

[كلام الله تعالى]

وكلامُهُ: ليس في جنس الحروف والأصوات، بل الحروفُ والأصواتُ عبارةٌ عن كلامِهِ ودلالةٌ عليه، والقرآنُ كلامُ اللهِ تكلَّم به الباري جَلَّتْ عظمتُهُ قبل خلق المخلوقين جميعًا، وهو مُقَدَّسٌ وَمُنَزَّهٌ عما يقول المُبتدعون والظالمون والجاحدون، كتابٌ بَيَّنَ الله فيه لعباده الحلال والحرام، والوعد والوعيد، والضر والنفع، وهو الفرقان المبين: ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 42].

[كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان]

واللهُ تعالى كانَ ولا مكانَ، ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض(1)، ولا على مكانٍ ولا في مكانٍ، بل كان جَلَّتْ عظمتُهُ ولا زمانَ ولا مكانَ.

=

ثم منهُ ما اقترنت به دلالة العقل: كالحياة، والقدرة، والعلم، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، ونحو ذلك من صفات ذاته، وكالخلق، والرزق، والإحياء، والإماتة، والعفو، والعقوبة، ونحو ذلك من صفات فعله.

ومنهُ ما طريق إثباته ورود خبر الصادق به فقط: كالوجه، واليدين، والعين، في صفات ذاته، وكالاستواء على العرش، والإتيان، والمجيء، والنزول، ونحو ذلك من صفات فعله.

فثبتت هذه الصفات لورود الخبر بها على وجه لا يوجب التشبيه.

ونعتقدُ في صفات ذاته: أنها لم تزل موجودة بذاته، ولا تزال موجودة به، ولا نقول فيها إنها هو ولا غيره، ولا هو هي ولا غيرها، ولله تعالى أسماء وصفات يستحقها بذاته، لا أنها زيادة صفة على الذات كوصفنا إياه بأنه: إله، عزيز، مجيد، جليل، ملك، جبار، متكبر، شيء قديم، والاسم والمسمى فيهما واحد.

ونعتقدُ في صفات فعله: أنها بائنة عنه ﷻ، ولا يحتاج في فعله الى مباشرة قال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: 82])). أصول الدين الإسلامي (101 - 150)، مجموع جوهرة التوحيد (271/1 - 431)، الأسماء والصفات (276/1 - 277).

(1) الجسمُ: هو كلُّ ما تركب من جوهرين فأكثر وله طول وعرض وعمق.

والجوهرُ: هو ما قام بنفسه ولهُ حيِّزٌ بحجم وكمية ومقدار.

=

[السماء قبلة الدعاء]

ورفعُ الأيدي إليه في الدنيا إلى السماء تعبُّدٌ، لا إليه أنَّهُ في السماء، بل كالتوجه إلى الكعبة في الصلاة، فالكعبةُ قبلةُ الصلاةِ والسماءُ قبلةُ الدعاءِ[1].

=

والعرضُ: هو ما قام بغيره كالألوان والحركة والسكون والطعوم والروائح.

فالحجرُ: جسمٌ مكوّنٌ من جوهرٍ وعرضٍ؛ فمادتُهُ: جوهرٌ، وألوانُهُ أو حركتُهُ أو سكونُهُ: عرضٌ.

يُنظر: تعريفات الجرجاني والمصادر السابقة.

(1) فائدة: قال الإمام الطحاوي (ت321هـ): ((ومَنْ لم يَتَوَقَّ النفي والتشبيه زلَّ ولم يُصِب التنزيه؛ فإنّ ربنا جل وعلا موصوف بصفات الوحدانية، منعوت بنعوت الفردانية، ليس في معناه أحد من البرية، وتعالى عن الحدود والغايات، والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهاتُ السِّتُّ كسائر المُبتدعات)). متن العقيدة الطحاوية (ص15).

وقال الإمام عبد القاهر البغدادي (ت429هـ): ((وأجمعوا على أنَّه لا يحويه مكان، ولا يجري عليه زمان، على خلاف قول مَنْ زعم من الهشامية والكرّامية أنَّه مماسّ لعرشه، وقد قال أمير المؤمنين علي ﷺ: إنَّ الله تعالى خلق العرش إظهارًا لقدرته لا مكانًا لذاته، وقال أيضًا: قد كان ولا مكان، وهو الآن على ما كان)). الفرق بين الفرق (ص292).

وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي (ت505هـ): ((العلم بأنَّ الله تعالى منزه الذات عن الاختصاص بالجهات؛ فإن الجهة: إما فوق وإما أسفل وإما يمين وإما شمال أو قدام أو خلف.

وهذه (الجهات): هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة (خلق الإنسان)؛ إذ خلق له طرفين: أحدهما يعتمد على الأرض ويُسمى رجلًا، والآخر يقابله ويُسمى رأسًا، فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرأس، واسم السفل لما يلي جهة الرجل، حتى إنَّ النملة التي تدب منكسة تحت السقف تنقلب جهة الفوق في حقها تحتًا وإن كان في حقنا فوقًا.

وخلق للإنسان اليدين: وإحداهما أقوى من الأخرى في الغالب، فحدث اسم اليمين للأقوى، واسم الشمال لما يقابله، وتُسمى الجهة التي تلي اليمين يمينًا والأخرى شمالًا.

وخلق له جانبين: يُبصر من أحدهما ويتحرك إليه، فحدث اسم القدام للجهة التي يتقدم إليها بالحركة، واسم الخلف لما يقابلها.

فالجهات حادثة بحدوث الإنسان، ولو لم يُخلق الإنسان بهذه الخلقة، بل خُلِقَ (مستديرًا كالكرة) لم يكن لهذه الجهات وجود ألبتة، فكيف كان في الأزل مختصًا بجهةٍ والجهةُ حادثةٌ؟ أو كيف صار مختصًا بجهةٍ بعد أن لم يكن له؟

=

=

أبِأن خلق العالم فوقه ويتعالى عن أن يكون له فوق؛ إذ تعالى أن يكون له رأس، والفوق عبارة عما يكون جهة الرأس، أو خلق العالم تحته فتعالى عن أن يكون له تحت، إذ تعالى عن أن يكون له رجل، والتحت عبارة عما يلي جهة الرجل، وكل ذلك مما يستحيل في العقل.

ولأنَّ المعقول من كونه مختصًا بجهة أنَّه مختصٌ بحيّز اختصاص الجواهر، أو مختص بالجواهر اختصاص العرض، وقد ظهر استحالة كونه جوهرًا أو عرضًا فاستحال كونه مختصًا بالجهة.

وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطًا في الاسم مع المساعدة على المعنى، ولأنَّه لو كان فوق العالم لكان محاذيًا له، وكلُّ محاذٍ لجسمٍ فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر، وكل ذلك تقدير محوّج بالضرورة إلى مقدّر، ويتعالى عنه الخالق الواحد المُدبّر.

فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء: فهو لأنها قبلة الدعاء، وفيه أيضًا إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيهًا بقصد جهة العلو على صفة المجد والعلاء، فإنَّه تعالى فوق كل موجود بالقهر والغلبة والاستيلاء)). الأصل السابع، إحياء علوم الدين: (1/357 - 358).

وقد حقّقَ الإمام ابن اللبان (ت749هـ) في كتابه فصلًا لإزالة شبهة الاعتقاد بالجهة فقال ما نصه: ((**وأما صفة الفوقية**: فقد جاء بها الكتاب والسنة؛ كقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: 50]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: 18]، وآيات كثيرة وأحاديث كثيرة، وهو معدود من المتشابه، وذلك أن كلمة (فوق): موضوعة لإفادة (جهة العلو)، والله تعالى (منزّه عن الجهات)، وإنما المراد منها حيث أُطلقت في حق ربنا سبحانه إفادة العلو الحقيقي، ومما يدلُّ على عدم اختصاصه بجهة فوق قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: 3]، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: 84]، وقوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 115]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ﴾ [ق: 16] وقوله: ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: 7]، وآيات كثيرة يطول ذكرها.

ولو كان في جهة العلو تعارضت هذه الآيات واختلفت، وهو منافٍ لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: 82] وفي (مسلم) عن أبي هريرة ﷺ: أنه ﷺ قال: ((**أقربُ ما يكونَ العبدُ من ربه وهو ساجدٌ**))، فنفى تقييده بجهة فوق، وهو: لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

والذي يجمع بين الآيات والأحاديث: أن تعلم أن العلو له اعتباران: اعتبار إضافي، واعتبار حقيقي، فعلو المخلوقات بعضها على بعض إنما هو علو إضافي، لأنَّ ما من مخلوق له جهة

=

=

علو إلا وهو مستفل بالنسبة إلى مخلوق آخر هو فوقه، إلى ما يشاء الله تعالى، وهذا العلو الإضافي قسمان:

قسم حِسّيٌّ: وهو المفهوم بالنسبة إلى الجهات المكانية، المخصوص بالجواهر المفتقرة للحيّز.

وقسم معنويٌّ: وهو المفهوم بالنسبة إلى درجات الكمال العرفاني لأرباب القلوب، إذ الكمال الوهمي لأرباب النفوس، قال تعالى: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الزخرف: 32]، وقال: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْءَاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾ [الإسراء: 21]، هذا كله في العلو الإضافي، وأما العلو الحقيقي: فإنما هو لله ﷻ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة : 255]، وعلوه هذا:

- محققٌ قبل الجهات والأماكن.
- مفهومٌ بدون اعتبار النسب والإضافات.
- عامٌّ في جميع تجلياته على مخلوقاته بأسمائه وصفاته.

وإنما يعرفه ويشهده أرباب البصائر والقلوب، ويتجلى نور توحيده بعلو فوقية سُبحاته، وله حجاب؛ فسبحته: صفة القهر، وحجابه: خلوص العبودية، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: 18].

تنبيه: تحقيق تنزيه فوقيته سبحانه عن الجهة والمكان:

إذا أردت أنْ تحقّقَ أنَّ فوقيته ليست فوقية مكانية، وإنما هي الفوقية الحقيقية بقهر الربوبية للعبودية، فتفكر في قوله ﷺ: «**كَان ولَا شَيء مَعه**»، ولم يتجدد له بخلقه السماوات علو، ولا بخلقه الأرض نزول، ولا بخلقه العرش استواء وجلوس، وإنما عن تجلي أسمائه وصفاته نشأت أعداد مخلوقاته غير مماسة له، ولا منتسبة إليه بفوق ولا تحت ولا شيء من الجهات قال تعالى: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾﴾ [الأعلى: 1، 2]، فوصفه بالأعلى حال اتصافه بالخلق يدلُّ على أن علوه محقق قبل الخلق، ولذا قال: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: 67]، ووصف نفسه آخر الآية بالعلو والتنزيه في قوله تعالى بعد ذكره قبضه للأرض وطيه للسماء، فدلَّ على أنَّ علوه علو حقيقي لا مكاني.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ﴾ [الأنعام: 61] مع قول فرعون عن بني إسرائيل: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: 127]، فهل يفهم أحد أن فرعون ادّعى أنه فوق بني إسرائيل بالمكان أو الجهة؟

=

=

وإنما لما ادّعى الربوبية بقوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]، كان من لازم دعواه ادّعاء الفوقية اللائقة بالربوبية، وهي الفوقية الحقيقية بالقهر فلذلك قال: ﴿وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]، لا جرم كذَّبَهُ الله ﷻ في الأمرين: فكذَّبَهُ في قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ بقوله سبحانه لموسى: ﴿قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨﴾ [طه: 68]، وكذَّبَهُ بقهره في قوله: ﴿فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ ٧٨ وَأَضَلَّ فِرۡعَوۡنُ قَوۡمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ٧٩﴾ [طه: 78، 79].

تنبيه: على معنى رفيع الدرجات:

قولُهُ تعالى: ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ [غافر: 15] يرجع إلى العلو والفوقية الحقيقية، وليس المراد أن العلو الحقيقي له درجات وتفاوت، وإنما المراد: أنَّ للعباد في ترقيهم إلى معرفته وخُلوص التحقق به درجات:

الأولى: درجة الإيمان.

الثانية: درجة التقوى.

الثالثة: درجة الاتباع.

الرابعة: درجة العلم.

قال الله تعالى: ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: 11]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [البقرة: 212]، وقال تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ [آل عمران: 55]، وقال تعالى ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ ٧٦﴾ [يوسف: 76].

فائدة: في الرد على فرعون حين ادّعى الألوهية واعتقد الجهة:

لمَّا ادَّعى فرعون الربوبية واعتقد الجهة لله ﷻ قال: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ٣٦ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 36، 37]، فردّ الله تعالى عليه، وسخّف سوء رأيه بقوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ﴾ [غافر: 37] أي: عدل عن سبيل القرب والدنو من إله موسى، فإنه تعالى تنزه عن علو المكان، وإنما: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر: 10]، أين هو من قول موسى ﵇: ﴿وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: 84]، مع أنه لم يُبْنَ له صرح، ولا احتاج في الدنو والقرب إلى صعود السماء؟!

وكذلك إبراهيم ﵇: ﴿إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ٨٤﴾ [الصافات: 84]، ووهب له: ﴿لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا ٥٠﴾ [مريم: 50]، فكان مجيئه إليه ووصوله وعلوه بسلامة القلب وصدق اللسان، لا بالتسوّر والصعود إلى المكان، وقد ثبت إيواء الله تعالى للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ﴾ [الأنفال: 26].

=

=

وفي (صحيح البخاري) عن أبي واقد الليثي: أنَّ ثلاثة حضروا لحلقة ذكر، فدخل أحدهم الحلقة، والثاني جلس خلفهم، والثالث أدبر ذاهبًا فقال ﷺ: «**أمَا أحَدُهم فَأوَى إلى الله فَآواه الله، والآخر اسْتَحيا فاسْتَحيا الله مِنه، والآخَر أَعرض فَأَعرض الله عَنه**». فنبه ﷺ على أنَّ الداخل أوى إلى الله فآواه الله، مع العلم بأنه ليس الإيواء في الآية والحديث باعتبار مكان.

وفي (صحيح مسلم) وغيره عن أبي هريرة ﷺ: أنَّ النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة فقال: «**مَا بَال أَحَدكم يَقُوم مُستقبل رَبه فَيَتنخّعُ أَمامه! أَيحبُّ أَحَدكم أَن يُستقبل فَيُتنخع فِي وَجهه؟**». فدلَّ على أنَّه ليس مخصوصًا بجهة فوق، وإلا لما كان قبلة المصلي وأمامه.

وبالجملة: فالأحاديث الدالة على عموم إحاطة ربنا بجميع الجهات وعدم اختصاصه كثيرة، والقصد قد حصل بما ذكرناه)).

ثم قال في موضع آخر بعده: ((**تبصرة: في زيادة تحقيق نفي الجهة عن الله تعالى:**

وإذا أردت زيادة التبصّر بأنّ الإسراء وعروج الملائكة ورفع عيسى وإدريس ﷺ إلى السماء؛ (لا يدلُّ على أنَّ الله تعالى مخصوصٌ بجهة السماء)، فاعتبر (فرض الحج) على العباد إلى بيت الله الحرام، وأمر الله تعالى الناس بالتوجه إليه من جميع الجهات، وجعل سكانه جيران الله سبحانه، وحُجّاجه وفده وضيفانه، والحجر الأسود يمينه؛ مع أنَّ نسبة البيت وغيره إلى الله سبحانه باعتبار المسافة (نسبةً واحدةً)، فعلم أنَّ القصد بالسير إلى البيت ليس لأنَّ السير يقتضي القرب في الوصول إليه بالمكان، وإنما لله ﷻ تعبدات وأسرار في ضمن مشروعات يقتضيها من عباده لحكم (ظاهرةً وخفيةً)؛ ألا تراه كيف ناجى موسى بالوادي المقدس، وأسمعه كلامه من الشجرة، ووصفه بالقرب إلى مجلس حضرته ونجواه؟ مع الاتفاق على: أنَّه تعالى لا يختص بجهة الوادي المقدس، ولا يَحُلُّ كلامه وهو صفته بالشجرة، وأنَّ موسى قَرُبَ إليه مع كونه بالأرض، وسمع نداء ربه من جانب الطور، ولم يكن ربُّه بجانب الطور، وإنما لتجلياته مظاهر وحُجُب (روحانية وجسمانية) لا يشهدها إلا من فتق الله رتق قلبه، وفلق إصباح ليله، ونوّر مصباح مشكاته بزيت شجرة توحيده: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: 40])). إزالة الشبهات (ص249 – 256؛ 277 – 278) وليُراجع كتابه هذا فإنه فريد في بابه.

فإن قيل: لعلَّ من يعتقدُ بالجهة لله تعالى يقول: إنَّ أهل السنة والجماعة ينكرون صفة العلو لله تعالى؟ **قلنا**: حاشا وكلا، إنَّ أهل السنة والجماعة ومنهم الإمام الرفاعي يثبتون العلو لله تعالى (لكنه علو مُنزّهٌ عن التشبيه والتحديد والكيف والمكان والجهة)، إنه علو يليق به ﷻ، ولا يعلم قدره أحد ما سوى الله وحده، وهذا العلو هو المشار إليه في تسبيح السجود: (سبحان ربي الأعلى)، والمشار إليه أيضًا في قوله ﷺ: «**كَان الله وَلَم يَكُن شَيء غَيره**»، وقول الإمام علي بن

=

[مخالفة صفات الله تعالى للحوادث]

والله تعالى ليس بصورة، وكلُّ ما تصور في فهمك ووهمك فالله تعالى خالقُهُ ومكونُهُ، والله تعالى لا يُشبِهُ شيئًا مما خَلَقَ، ولا تُشبِهُ ذاتُهُ ذات المخلوقين، ولا صفاتُهُ صفات المخلوقين كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ١١﴾ [الشورى: 11].

=

أبي طالب كرَّم الله وجْهه: ((إنَّ الله قريبٌ في بعدِهِ، بعيدٌ في قربِهِ، فوقَ كلِّ شيءٍ ولا يقالُ شيءٌ تحتَهَ، وتحتَ كلِّ شيءٍ ولا يقالُ شيءٌ فوقَهَ))، فعلو الحق ﷻ لا يشبه علو المخلوقين مطلقًا؛ لأنَّ علو المخلوق مهما كان لا يخرج عن التحديد والتشبيه والكيف والجهة، فالعلو الذي نفاه أهل السنة والجماعة: هو العلو الحادث المشبه المكيف المحدود، وهو عين العلو الذي أثبته المشبهة والمجسمة في حق المولى ﷻ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا، وهذا ما قرره الإمام الرفاعي أيضًا في عقيدته: إنَّ الله تعالى منزه عن التغير والحدوث، كان موجودًا قبل المكان، وقبل خلق المخلوقات؛ قبل السماء وقبل الجهات وقبل العرش وقبل الماء وقبل كل شيء، فالله تعالى لا يتغير موجود قبل الخلق بلا مكان وهو الآن على ما عليه كان، كما قال جده الإمام علي كرَّم الله وجْهه: ((كان الله ولا مكان، وهو الآن على ما عليه كان))، وعليه الجمهور: على تنزيه الله تعالى عن المكان والجهة والحدّ والتغير والحدوث والجلوس والقعود وغيرها من العقائد التي يبثّها البعض بين المسلمين، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

قاعدة: وقد أطلق سيد الصوفية الجنيد القول: ((بأنَّه لا يعرفُ اللهَ إلا اللهُ))، وقال العارفون: ((سبحان مَن كان عين العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به، وسبحان مَن يُعْرَفُ بأنَّه لا يُعْرَف))، فإن سألت عن أسمائه فقد قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: 180]، وإن سألت عن صفاته فقد قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ [الإخلاص: 1] إلى آخر السورة، وإن سألت عن أقواله فقد قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾ [النحل: 40]، وإن سألت عن أفعاله فقد قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ٢٩﴾ [الرحمن: 29]، وإن سألت عن نعته فقد قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ٣﴾ [الحديد: 3]، وإن سألت عن ذاته فقد قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: 11]. شرح الصاوي على الجوهرة (200/1).

[معنى شهادتي التوحيد]

واللهُ تعالى واحدٌ أحدٌ فردٌ صمدٌ، لا شريك له، ولا وزير له، ولا شبيه له، ولا ضِدَّ له، ولا نِدَّ له، ولا نظير له، ولا مثيل له، ولا أول له، ولا آخر له، ولا ولد له، ولا والدة له، ولا والد له، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، عالمٌ بأمور خلقه من مبتداهم إلى منتهاهم، وكُلُّ مخلوق بخلقته شاهدٌ عادلٌ على أنَّه: (لا إله إلا هو الرحمن الرحيم)، وأنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، وصفيه وحبيبه وأمينه، وخيرته من خلقه، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، سيد المرسلين، وإمام الثقلين، وخاتم النبيين ﷺ.

[الإيمان برسالة الأنبياء والرسل]

وأنَّ الله أرسل قبله رسله أولهم آدم وخاتمهم محمد ﷺ، وكُلُّهُم جاؤوا بالحقِ، وتكلَّمُوا بالصدق، وبلَّغُوا الرسالة؛ وصدقوا فيما بلَّغوا عن ربهم ﷻ، وكُلُّ ما أنزل عليهم من الكتب والصحف حقٌّ، وأنَّ محمدًا ﷺ خاتم الرسل ولا نبي بعده، وأنَّ الرسل كُلَّهُم على حقٍّ، وأنَّ عيسى ﵇ ينزل في آخر الزمان ويكون على شريعة محمد ﷺ كواحد من أمته، داعيًا إلى دينه وسنَّته.

[الإسراء والمعراج حق]

وأنَّ المعراج حقٌّ: أسري بالنبي ﷺ بنفسه وشخصه في ليلة واحدة من مكة إلى بيت المقدس على ظهر البراق، ثم عرج إلى السماء حيث شاء[الله]، وأنَّه ﷺ وقف بين يدي ربه ﷻ وَحَيَّاهُ بقوله ﷺ: «**التَّحيات المُباركات الصَّلوات الطَّيِّبات لله**»، وأنَّ الله تعالى رَدَّ عليه بأحسن رَدٍّ وقال: ((السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته))، ثم دنا من ربه ﷻ دنو تكريم كما ذكره في الكتاب العزيز بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾﴾ [النجم: 8، 9].

[التكاليف لا تسقط عن الصالحين مهما بلغت درجاتهم]

وأنَّ الصالحين مع علو منزلتهم وقربهم من ربهم لا يسقط عنهم شيء من الفرائض الواجبات من الصلاة والزكاة والحج والصيام وغير ذلك، ومن زعم أنَّه صار وَليًّا وسقطت عنه الفرائض فقد كفر؛ فإنَّه لم يسقط ذلك عن الأنبياء فكيف يسقط عن الأولياء؟!

[الفرق بين النبوة والولاية]

وأنَّ الوليَّ كبقلة تحت شجرة النبوة، ولقد قام رسول الله ﷺ حتى تورّمت قدماه فقيل له: ألم يغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «**أَلا أَكُون عَبدًا شَكورًا**»[1].

---

(1) ومن كلامه ﷺ في هذا الباب أيضًا: «النبيُّ شجرةٌ، والوليُّ بقلةٌ، وكم تحت هذه الشجرة من هذه البقلة، وقال للسيد إبراهيم الأعزب ﷺ: أي ولدي، شعرة من ساق نبي ولو كان غير مرسل لا يعدل بها أحد من الأولين والآخرين، فقال: كيف هذا الأمر؟ فقال: أي ولدي، الحقُّ ﷻ مع تلك الشعرة، والربُّ ﷻ لا يوازنه شيء، وقال ﷺ للفقراء: **أي فقراء، من جملة صحة الاعتقاد:**

1. تصديق إشارات الصالحين ﷺ أجمعين.
2. وأنَّ أبا العباس الخضر ﷺ حيٌّ مرزوق في الدنيا، يُسْمَع منه في مشاهدة ويُرى، وهو من أهل التكليف بالشرع المحمدي صلوات الله وسلامه عليه، كذلك إلياس ﷺ.
3. وأنَّ إدريس وعيسى ﷺ في السماء.
4. وأنَّ سيد البشر، عروس مملكة الرحمن محمدًا ﷺ رأى الأنبياء قاطبة عليهم الصلاة والسلام في ليلة الإسراء، وشاهدهم وشاهدوه، وصافحهم وصافحوه، وصلوا وراءه روحًا وجسدًا.
5. وأنَّه ﷺ أسلم على يده طوائف الجانَّ وآمنوا به، وإنهم مختلفون كاختلاف الأمم.
6. وأنَّ الشياطين قاطبة من أهل النار.
7. وأنَّ الجانَّ الموحدين العاملين يدخلون الجنة، ولكنهم لا يبلغون منازل المؤمنين المُوحّدين من الآدميين؛ إذ التكرمة لهم والرسل منهم، وإن منهم من يتّبع الصالحين منّا، ويقرأ عليهم ويسألهم ويتعلم الدعاء والأدب، ومنهم الأشرار، كما قسم الله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: 7].

=

=

8. وأنَّ الأولياء لهم شفاعة دون شفاعة الأنبياء، وإنَّ لهم اجتماعًا في البرزخ، ولكن تكميله يكون في الآخرة ويكون دونه.

9. وأنَّ الشيخ إذا كان كاملًا يحضر مريده عند الموت، وعند مساءلة القبر، وعند الميزان، وإنَّه يدور وراء مريده ويغطيه إذا انكشف، ويرفع عنه الأذى ما استطاع، ويقرب إليه المنافع.

10. وكان ﷺ: يُعظّم شأن أهل البيت، ويكرمهم ويحبّهم ويجلّهم ويقول: قال الله تعالى في حقهم: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب: 33]، و: ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: 23]، ورأى ﷺ قومًا يحلفون بأهل البيت فقال لهم: لا واخذكم الله، إذا كنتم تحلفون فاحلفوا بي؛ لأنكم إذا حلفتم بهم كاذبين هلكتم، وأخذ العهد عليهم أن لا يحلفون بهم من بعد.

11. وقال ﷺ: من خطر في سرِّه أنَّ أبا بكر ليس صاحب النبي ﷺ ليس له من توبة إلا أن يُسلم من جديد، ويقول: قال النبيُّ ﷺ: «**سَبُّ أصحَابي ذَنبٌ لا يُغفَر**»، ودلَّ ذلك على أنَّ سبّهم كفر بلا شك فقال له فقير: أي سيدي، نحن نقول: كل الصحابة عندنا في الله سواء فقال له ﷺ: هذا كفر أي مبارك، يقول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ [الحديد: 10]، وأنت تقول: يستوي! من ردَّ آيةً من القرآن أو حرفًا منه ردَّ القرآن، ومن ردَّ القرآن كفر، ومن كفر وجب عليه القتل لقول النبي ﷺ: «**لَا يحِلُّ دمُ امرئٍ مُسلمٍ إِلَّا بِإحدَى ثَلاث: كُفْرٌ بعد إيمَان، أو زِنا بَعد إحصَان، أَو قتلُ نفسٍ بغَير حَق**».

12. وقال ﷺ: اجتمعت أرباب الولاية على أنَّ كلام الموتى لهم واقع، وحديثهم معهم وسؤالهم على قدر حال المتكلم والمكلّم، وكذلك السلام على الملائكة والمصافحة لهم، ومعرفة الشقيِّ من السعيد، ومشاهدة الطرف من العيان كل على قدر ما أنعم الله عليه وقسم له، وعلى رُقيّ الهمم وعلوّها إلى صاحب القدم، وكلٌّ منهم له مقام لا يتجاوزه، وحدٌّ لا يتعداه، على أنَّ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ﷺ، وكان يشهد على من لا يقولها ويعتقدها بالابتداع، وإنَّ سابَّ الشيخين ﷺ ليس له عند الحق حرمةً ولا شفاعةً.

13. وكان ﷺ: يذبُّ عن أعراض الصحابة قاطبة، مثل عمرو بن العاص ومعاوية، ومَن نُسب إلى ما جرى بينهم، ويأمر بمحبّتهم وينهى عن مسبّتهم، ويمدحهم ولا يذمهم ويقول: إنَّ هؤلاء القوم قد عفا الحق ﷻ عنهم، ولم يؤاخذهم بما جرى بينهم، وإنهم يتواهبون ويدخلون الجنة)). جلاء الصدى (ص404 - 412).

[معنى الإيمان وصفته وأركانه]

وإيمانُ العبادة: وهو تصديقٌ بالقلب، وهو على طريق الاختيار والخبر والتصديق لله في جميع ما أنزل على أنبيائه عليهم الصلاة والسلام ، وجميع ما بلَّغوا عن الله ﷻ، ويدخلُ ذلك كُلُّهُ تحت هذه العبادة وهي: (الإيمانُ بالله تعالى، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبما أنزل الله على رسله).

ولا خلاف أنَّ التصديق بالقلب مُزَكٍّ لثبوت الإيمان، وهو ركنُ الإيمان، والركنُ: هو تصديق القلب، ويصير العبد مؤمنًا بينه وبين الله تعالى بالتصديق المُجرّد، والإقرار باللسان دلالة عليه ليجري عليه إيمانه.

[الإيمان يزيد وينقص]

وأنَّ الإيمانَ يزيدُ وينقصُ، والإيمانُ والإسلامُ واحدٌ، وكلُّ مسلمٍ مؤمنٌ[1].

(1) جاء في نفس المصدر: ((وَرُوِيَ عنه ﷺ برواية عمر بن أحمد [نفسه]، عن أبيه [أحمد]، عن الشيخ القاضي أبي الفرج الأصفهاني ﷺ قال: كان سيدي أحمد قدّس سره يقول للفقراء: لا تقنعوا من الإسلام باسمِهِ أن يَقُولَ أحدُكُم: أنا مسلم، أقول: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)؛ فإنما حفظتُ بهذه الكلمة مالك ونفسك، فينبغي أن تحفظ بها أيضًا دينك وقلبك، لكيلا تُكْتَبَ مُنافقًا، وذلك أنَّ المنافق قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله بلسانِهِ وترك العمل، فحقن دمه وماله، واخترم أُجرَتهُ؛ لأنَّهُ كان قولُهُ بلسانِهِ ولم يُوافقهُ قلبُهُ على ذلك، فكان كالمستهزئ بنفسه، ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾.

فينبغي للعاقل المتمسك بهذا الدين أنَّهُ إذا قال: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) يقولها اعتقادًا وإيمانًا بالقلب، وتصديقًا بالعمل بجميع الجوارح حتى يكون مُسلمًا.

وأيضًا: لا يكون مُسلمًا إلَّا بإصلاح العمل وأداء الفريضة، وأن تُريدَ لغيرك ما تُريدُهُ لنفسك، وأن يَسْلَمَ الناسُ من يدك ولسانك، ويأمن جارُك بوائقك، ولا تأمنُ مكر الله، ولا تيأسُ من روح الله، فقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩٩﴾ [الأعراف: 99].

وأيضًا: لا يكُونُ الرجُلَ مُسلمًا حتى تسلمَ رُوحُهُ من آفة قلبه، ويسلمَ هواهُ من آفة سرِّه، ويسلمَ سِرُّهُ من آفة خاطره، ويسلمَ خاطِرُهُ من آفة نفسه، وتسلمَ نفسُهُ من آفة شيطانه، فإذا سلِمَ من هذه =

[الإيمان بما بعد الموت]

وأنَّ عذاب القبر حقٌّ، وأنَّ منكرًا ونكيرًا حقٌّ، وأنَّ سؤالهما حقٌّ، وأنَّ البعث حقٌّ، والعرض حقٌّ، والحساب حقٌّ، وأنَّ الجنة ونعيمها حقٌّ، والنار وعذابها حقٌّ.

[صفة رؤية الله تعالى]

وأهلُ الجنة يرون ربهم بعينهم من غير إدراك ولا إحاطة، ولا كيفية ولا مقابلة، ولا على مكان، ولا في جهة من الجهات السِّتِّ.

[عرصات يوم القيامة]

وأنَّ قراءةَ الكُتبِ حقٌّ؛ يُؤتى المؤمن كتابه بيمينه والكافر بشماله، والميزان حقٌّ، والصراط حقٌّ، وحوض الكوثر حقٌّ، والشفاعة للنبي ﷺ حقٌّ، وشفاعة المؤمنين حقٌّ.

[محبَّة أصحاب النبي ﷺ]

ومحبَّة أصحاب رسول الله ﷺ على العموم حقٌّ، وكلّهم على هدى، فمن كان عنده محبَّة لله ورسوله، وكان هذا الدين عزيزًا عنده، لا يخطر في قلبه بغضهم، ولا بغض أحد منهم، ولا ينطق لسانه فيهم بسوء.

=

الآفات كُلّها صار مُسلمًا؛ لأنَّ الإسلام بُني على: (الخشية، وأكل الحلال، والورع، والإخلاص)، فإذا ذهبت الخشية ذهب الحياء، وإذا ذهب الحياء ذهب الورع، وإذا ذهب الورع ذهب الإخلاص، وإذا ذهب الإخلاص ذهب الإسلام؛ لأنَّ الله ﷻ قال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: 5])). إرشاد السلوك (اللوحة/61)، ربيع العاشقين (اللوحة/118).

[الخلافة الراشدة حق]

وأنَّ أبا بكر ﷺ صاحب رسول الله ﷺ وخليفته وخلافته حقٌّ، وبعده خلافة عمر بن الخطاب ﷺ حقٌّ، وبعده خلافة عثمان بن عفان ﷺ حقٌّ، وبعده خلافة علي بن أبي طالب ﷺ وكرَّم وجْهه حقٌّ، وهؤلاء كُلُّهُم خلافتهم حقٌّ.

[أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ]

وأفضلُ الخلق بعد نبينا محمد ﷺ أبو بكر الصديق ثم عمر ثم عثمان ثم علي ﷺ أجمعين[1].

[الخاتمة]

فهذا اعتقادُنا ومذهبُنا، فمن خالفَهُ، وقال غير ذلك لا بُرهان له، واللهُ بريءٌ منه، ثم قال: أي عبد الرحيم، اجعل هذا اعتقادَك، واعتقادَ من تعلَّقَ بكم، فهذا اعتقادُ الأتقياء من السلف ﷺ أجمعين[2].

❖ ❖ ❖

(1) قال الإمام السيوطي: ((أجمع أهل السنة: أنَّ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي، ثم سائر العشرة، ثم باقي أهل بدر، ثم باقي أهل أحد، ثم باقي أهل البيعة، ثم باقي الصحابة؛ هكذا حكى الإجماع عليه أبو منصور البغدادي)). تاريخ الخلفاء (ص63)، الفرق بين الفرق (ص310).

(2) ربيع العاشقين (اللوحة/115أ - 117ب).

(7)

شرح قصيدة
(يا من تعاظم) للإمام أحمد الرفاعي
للشيخ أحمد بن عجيبة الحسني (ت 1224هـ)

المطبوع بتحقيق
عبد السلام العمراني الخالدي

اعتنى به وخرج أحاديثه وعلق عليه
ماجد حميد البياتي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمدُ لله الذي أحرق قلوب أوليائه بنار محبته، واسترقَّ هممهم وأرواحهم بالشوق إلى لقائه ومشاهدته، ووقف أبصارهم وبصائرهم على ملاحظة جمال حضرته، حتى أصبحوا من تَنَسُّم روح الوصال سكرى، وأصبحت قلوبهم من ملاحظة سبحات الجلال والهة حيرى، فلم يروا في الكونين شيئًا سواه، ولم يذكروا في الدارين إلا إيّاه، إن سنحت لأبصارهم صورة عبرت إلى المصور بصائرهم، وإن قرعت أسماعهم نغمة سبقت إلى المحبوب سرائرهم، وإن ورد عليهم صوت مزعج أو مقلق أو مطرب أو محزن أو مبهج أو مشوِّق أو مهيّج لم يكن انزعاجهم إلا إليه، ولا طربهم إلا به، ولا قلقهم إلا عليه، ولا حزنهم إلا فيه، ولا شوقهم إلا إلى ما لديه، ولا انبعاثهم إلا له، ولا ترددهم إلا حواليه، فمنه سماعهم، وإليه استماعهم، فقد أقفل عن غيره أبصارهم وأسماعهم، أولئك الذين اصطفاهم الله لولايته، واستخلصهم من بين أصفيائه وخاصته، والصلاة على محمد المبعوث برسالته، وعلى آله وأصحابه أئمة الحقِّ وقادته، وسلِّم كثيرًا[1].

أما بعدُ: فهذا شرح للعلامة الهمام الشيخ الصوفي الفهَّام: (أحمد بن عجيبة الحسني) على قصيدة صوفية: (تُنسب للإمام أحمد الرفاعي) كما نصَّ بالمقدمة، وهي في محبَّة الله تعالى ومناجاته؛ مؤلفة من (12) بيتًا، مطلعها: (يا من تعاظم حتى رقَّ معناه)، وقد طُبع هذا الشرح لأول مرَّة ضمن مجموع يشتمل على: (10) رسائل من تآلفيه، جمع وتصحيح وتقديم الأستاذ الفاضل: (عبد السلام العمراني الخالدي) طبع بالمغرب في: (دار الرشاد الحديثة/ الدار البيضاء ط1/ 1994م)، وكتابنا (السادس) منها يشغل

(1) الخطبة من إحياء الإمام الغزالي: (كتاب السماع).

الصفحات: (149 - 172)، إلا أنَّه مما يُؤسف له أن طبعته وقع فيها تصحيفات كثيرة - لعل منشأها الناسخ -؛ منها على سبيل المثال في (ص149): وسكن بأحواز مصر! والصواب: سكن بأحواز واسط، ومنها كلمات واضحة التصحيف إما رسمًا أو عجمةً، وأيضًا سقط البيت الخامس مع أنَّ شرحه موجودًا!

ثم طُبع في لبنان مرَّتين على (هذه النسخة) بنفس التصحيفات وعينها: بـ (دار الكتب العلمية)؛ ضبط وتصحيح وتعليق: الشيخ الدكتور عاصم إبراهيم الكيالي، غير أنه أعاد ترتيب رسائله تقديمًا وتأخيرًا، وحذف منه: (الفتوحات القدوسية في شرح المقدمة الآجرومية)! فأمسى: (9) رسائل، حتى أنَّ اسم محققه: (عبد السلام بن عبد السلام بن أحمد العمراني الخالدي) بقي في خاتمة (معراج التشوق/ص255) ولم يتم رفعه، والحقُّ أنَّ هذه الطبعة أفضل اخراجًا من الأصل، وكتابنا (الرابع) منها يشغل الصفحات: (181 - 210).

وهناك طبعة أخرى مستقلة (لهذا الشرح فقط)؛ غير أني لم أقف عليها سوى أن غلافها مرفوع على النت، تقديم وتحقيق الطالب: (محمد حجاج) كبحث له مقدم إلى جامعة محمد الخامس كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ لنيل شهادة الماستر في قسم العقيدة والتصوف بالغرب الإسلامي - الرباط/السنة الجامعية: 2020 - 2021م).

على كل حال؛ فالشيخ ابن عجيبة مُترجم في مقدمة الطبعتين المذكورتين وأعلام الزركلي وغيرها، وملخصه: ((ابن عجيبة: (1160 - 1224هـ = 1747 - 1809م) أحمد بن محمد بن المهدي، ابن عجيبة الإدريسي الحسني الأنجري: مفسر صوفي مُشارك، من أهل المغرب، دُفن ببلدة أنجرة بقرية الزميج (بين طنجة وتطوان)، قال عن نفسه في فهرسه: ((أما علم الباطن فهو علمي ومحطّ قدمي ولي فيه الباع الطويل))، له كتب كثيرة منها: (إيقاظ الهمم في شرح الحكم العطائية) أشهرها، و(البحر المديد في تفسير القرآن المجيد) و(الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية) و(معراج التشوق إلى حقائق التصوف) و(شرح قصيدة يا من تعاظم للإمام أحمد الرفاعي) و(شرح خمرية ابن الفارض) و(أزهار البستان في طبقات الأعيان المالكية) و(شرح القصيدة المنفرجة) و(شرح صلوات ابن مشيش) و(تبصرة الطائفة الزرقاوية) و(الفتوحات

القدوسية في شرح المقدمة الآجرومية) و(فهرسة لأشياخه) بثلاث إجازات عنهم؛ وكلهم أعربوا أنَّ المجاز فوقهم في العلم، وإنما جرت عادة المشايخ، إجازة المتخرجين للبركة)).

وقد اقتصر جهدي المتواضع لخدمة هذا الشرح بالآتي:

- ضبطُ النص على أصول قواعد العربية والإملاء.
- عزوُ الآيات القرآنية إلى سورها في القرآن الكريم.
- تخريجُ الأحاديث وعزوها إلى مصادرها.
- إخراجُ متن القصيدة بالمقدمة ليسهل حفظها.
- وضعُ عناوين جانبية بين معقوفتين لفهم الشرح أكثر.
- التعليقُ على بعض المواضع للتوضيع والفائدة.

هذا؛ وبه نختم الكتاب، ومن الله التوفيق وفيض المدد، وله الفضل والمنَّة وحده، والحمد لله رب العالمين.

❖ ❖ ❖

متن القصيدة
وهي في محبَّة الله تعالى ومناجاته

1. يـا مـن تعـاظم حتـى رق معنـاه ... ولا تـردى رداء الكبـر إلا هـو
2. تـاهوا بحبـك أقـوام وأنـت لهـم ... نعم الحبيب وإن هاموا وإن تاهوا
3. ولـي حبيـب عزيـز لا أبـوح بـه ... أخشى فضيحة وجهي يوم ألقاه
4. أغـالط النـاس طـرًّا فـي محبتـه ... وفـي الأغـاليط سـر رق معنـاه
5. أريهـم أننـي بغيـره ولـه ... وليس يعلم ما في القلب إلا هو
6. قالوا: أتنسى الذي تهوى؟ فقلت لهم: ... يا قومي، من هو روحي كيف أنساه!
7. وكيف أنساه والأشيا به حسنت ... من العجائب ينسى العبد مولاه!
8. ما غاب عني ولكن لست أبصره ... إلا وقلـت جهـارًا: قـل هـو الله
9. ماذا يقول اللواحي ضل سعيهم ... ومـا تقـول الأعـادي زاد معنـاه
10. هل غير أني أهواه وقد صدقوا ... نعـم نعـم أنـا أهـواه وأهـواه
11. أسـتغفر الله إلا مـن محبتـه ... فإنهـا حـسناتي يـوم ألقـاه
12. فإن يقولوا: بأن الحب معصية ... فالحب أحسن ما يلقى به الله

❖ ❖ ❖

بسم الله الرحمن الرحيم

النّص المحقّق

[مقدمة الشارح]

وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه تسليمًا، يقول العبد الفقير إلى مولاه الغني به عمَّا سواه: (أحمد بن محمد بن عجيبة الحسني)، لطف الله به وحباه، ولحضرته اجتباه:

الحمدُ لله، نحمدك يا من تعاظمت أنوار جماله وبهائه، حتى خفيت من شدَّة ظهورها معاني صفاته وأسمائه، ونشكرك يا من تردَّى برداء عزَّته وكبريائه، حمدًا وشكرًا يقتضيان المزيد من عظيم نواله وآلائه، ونصلي ونسلم على من انشقت من ناسوته الأسرار، وانفلقت من صفات لاهوته الأنوار، سيدنا ومولانا محمد منبع الأنوار، ومعدن الأسرار، ورضي الله تعالى عن أصحابه الأبرار، وأهل بيته الأطهار.

أما بعدُ: فقد سألني بعض أهل المحبَّة والوداد من أهل التسليم والاعتقاد أن أضع تقييدًا على (قصيدة تُنسب للإمام الرفاعي) ﷺ[1].

[ذكر ترجمة الإمام أحمد الرفاعي نقلًا عن طبقات الشعراني]

وهو (أحمد بن أبي الحسن الرفاعي) نُسب إلى بني رفاعة قبيلة من العرب، وسكن بأحواز واسط، قرية يقال لها: أُمّ عَبِيدَةَ بأرض البطائح، إلى أن مات بها ﷺ وقت الظهر، ثاني عشر، جمادى الأولى، سنة ثمانية وسبعين وخمسمائة.

---

(1) القصيدة لها أصل في جلاء الصدى: (ص467 - 468).

وكان: شافعي المذهب، وله أحوال غريبة في التواضع، وتعاطي السفليات، وتحمل الأذى، كان ﷺ: يمشي إلى حارة المجذومين وأهل الأوساخ، فيغسل ثيابهم ويفلّي رؤوسهم ولحاهم، ويحمل لهم الطعام ويأكل معهم اللبن، ويجالسهم ويسألهم الدعاء ويقول: زيارة هؤلاء واجبة لا مستحبة.

ورأى مرَّة كلبًا أجرب أخرجه أهل أُمّ عَبِيدَةَ وقذروه، فخرج معه إلى البرية، وضرب له مظلة، وجعل يطليه بالدهن، ويطعمه ويسقيه، ويحك الجرب بخرقة، فلما بريء سخَّن له ماءً وغسله وقال: خفت أن يؤخذ حُمَيّد بهذا الكلب يوم القيامة، ويقول الحق ﷻ لي: يا حُمَيِّد، أما علمت إنه خلق من خلقي، أما أمرتك بالرحمة، أَطْلِ مُبتلى.

وكان: يخرج إلى الطريق ينتظر العميان ويقودهم إلى مكانهم، وإذا رأى شخصًا كبيرًا يذهب إلى أهل حارته، ويوصيهم عليه ويقول: قد ورد في الحديث: «**مَن أكرمَ ذا شيبةٍ سَخَّر اللهُ تعالَى من يُكرمهُ عندَ كبرِه**»[1].

وكان: إذا قدم من سفر، وقرب من بلده يشدُّ وسطه، ويخرج حبلًا، ويجمع حطبًا ثم يحمله على رأسه إلى الدار، ويفعل كذلك الفقراء، فإذا دخل البلد، فرّق ذلك على الأرامل والعميان والمساكين.

وكان: يتحمل أذى الناس ما لا يحمله غيره ويقول: إنهم من أمة محمد ﷺ، لقيه مرَّة جماعة فسبُّوه وقالوا له: يا بَدَّاع، يا مُسْتَحِلًّا للحرام، يا مبدلًا للقرآن، يا ملحد يا كلب. فكشف رأسه، وقبل الأرض وقال: اجعلوني في حل، وجعل يقبل أيديهم وأرجلهم، فلما أعجزهم قالوا: ما رأينا مثلك في الفقراء تحتمل منَّا هذا الشتم، فقال: هذا ببركاتكم.

---

(1) روى نحوه الترمذي عن أنس مرفوعًا برقم: (2022) ولفظه: «**ما أكرمَ شابٌّ شيخًا إلا قيَّضَ اللهُ له من يُكرمَهُ عند سِنِّهِ**»، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث يزيد ابن بيان عن أبي الرجال، قال في المقاصد: هو وشيخه ضعفيان، لكن قال المناوي عن الترمذي: أنه حسن، وتعقبه بأنه منكر، فليتأمل، ورواه ابن أبي حزم عن الحسن البصري من قوله. يُنظر: كشف الخفاء (2/233 - 234).

وأرسل إليه الشيخ البستي كتابًا يعاتبه وَيَحُطُّ مرتبته، فقال للرسول اقرأه، فإذا فيه: يا مبتدع، يا كلب، يا جامعًا بين النساء والرجال ونحو ذلك، فلما فرغ الرسول من قراءة الكتاب أخذه سيدي أحمد وقرأه وصار يقول: صدق أخي فيما يقول، وجزاه الله عني خيرًا، ثم أنشد:

ولست أبالي من رماني بريبة إذا كنت عند الله غير مريب

وكان: كثيرًا ما يتجلى الحقُّ له بالعظمة، فيذوب حتى يصير نقطة، ثم يتداركه اللطف فيصير يكبر شيئًا فشيئًا حتى يُردُّ إلى جنسه المعتاد ويقول: لولا لطف الله تعالى ما رجعت إليكم.

وله كلام طويل في الحقائق فمن كلامه ﷺ: الزهد أساس الأحوال المرضية، والمراتب السنية، وهو أول قدم القاصدين إلى الله ﷻ، والمنقطعين إلى الله، والراضين عنه، والمتوكلين عليه، فكل من لم يحكم أساسه في الزهد لم يصلح له شيء من هذا الطريق.

ومن كلامه أيضًا: الفقراء أشراف الناس؛ لأن الفقر لباس المرسلين، وجيب الصالحين، وتاج المتقين، وغنيمة العارفين، ومنية المريدين، ورضى رب العالمين، وكرامة الأولياء وأهل ولايته.

وسأله شخص أن يدعو له، فقال: يا أخي، إنَّ عندي اليوم قوت يومي، ومن كان عنده قوت يومه لم يقبل له دعاء، فإذا بلغك يا أخي أنه ليس عندي ما يأكله ذو كبد فسلني الدعاء، فإنَّ لي حينئذ أُسوة برسول الله ﷺ.

وكان يقول: لا يصحُّ الأنس بالله تعالى إلا لمن كملت طهارته واستوحش مما يشغله عن الله تعالى، فعند ذلك يؤنسه الله به.

وكان يقول: الشفقة على الأخوان مما يقرب إلى الله تعالى.

وقال لخادمه: يا يعقوب، كن ذنبًا ولا تكن رأسًا فإن الضربة أول ما تقع تقع في الرأس، وإياك ورؤية نفسك على الأخوان فإنه لا يقال لك عثرة، ولا يساعدك أحد، وانظر إلى النخلة: كلما ارتفعت وأشرفت على الجيران جعل الله ثقل حملها عليها

ولو حملت ما حملت لا يساعدها أحد، وانظر إلى شجرة اليقطين: شجرة القرع لما ارتفعت ألقت خدها على الأرض، كيف جعل الله ثقل حملها على الأرض، ولو حملت ما حملت لا تحس به.

وكان يقول: أفضل العبادات البدنية: الصدقة.

وكان يقول: التوحيد؛ وجدان عظيم، والقلب؛ يمنع من التعطيل والتشبيه، وكان: يكره لأصحابه الخوض في الذات والصفات.

وكان يقول: إذا صلح القلب؛ صار مهبط الوحي والأسرار والأنوار والملائكة، وإذا فسد؛ صار مهبط الأباطيل والظلم والشياطين.

وكان يقول: إذا صلح القلب؛ أخبرك عما وراءك وأمامك، وإذا فسد؛ حدثك بأباطيل يغيب معها الرشد وينتفي منها الهدى.

وكان يقول: من شرط الفقير؛ أن يرى كل نَفَسٍ من أنفاسه أعزُّ من الكبريت الأحمر فلا يضع في كل نفس إلا ما يصلح له.

وكان يقول في حديث: «**من تزوجَ للهِ كُفِّيَ ووُقِّيَ**»[1]، معناه: أن يتزوج امتثالًا للأمر لا بحكم الشهوة البهيمية.

وكان يقول: طريقنا على ثلاثة أشياء: لا نسأل، ولا نرد، ولا ندّخر.

وكان يقول: سعادة المريد أن يفتخر به شيخه لشدة مجاهدته.

وكان يقول: من غضب لنفسه تعب، ومن سلم أمره إلى مولاه نصره من غير أهل ولا عشيرة.

وكان يقول: والله ما كان لي خيرًا إلا في الوحدة فيا ليتني لم أعرف أحدًا، ولم يعرفني أحد.

---

(1) لم أجده بهذا اللفظ؛ لكن ورد في الإحياء نقلًا عن قوت القلوب بلفظ: «**من نكحَ للهِ وأنكح للهِ استحقَّ ولايةَ اللهِ**»، وهذا أيضًا لم يرِد، فالوارد عند أحمد والحاكم والبيهقي في الشعب والطبراني في الكبير بلفظ: «**من أعطَى لله وأحبَّ لله وأبغَضَ لله وأنكحَ لله فقد استكملَ إيمانهُ**» وسنده ضعيف. يُنظر الإحياء: (320/2).

وكان يقول: من شرط الفقير ألا يكون له نظر في عيوب الناس.

وكان يقول: إياكم وتعاطي أسباب الشهرة والفرح بالمحبين والمعتقدين.

وكان يقول: ما من ليلة إلا ينزل فيها نور من السماء يقذف في قلوب المستيقظين.

وكان يقول لأصحابه: من تشيَّخَ عليكم فقدموه، ومن قدَّمَ لكم يده لتقبلوها فقبلوا رجله، ومعنى تشيَّخَ عليكم: نصب نفسه للمشيخة.

وكان يقول: إذا أراد الله أن يُرَقِّي عبده إلى مقامات الرجال كلّفه بأمر نفسه أولًا، فإذا أدَّب نفسه واستقامت معه كلَّفه بأهله، فإن أحسن إليهم وساسهم كلَّفه الله بأهل بلده، فإن أحسن إليهم وساسهم كلَّفه جهة من البلاد فإن هو نصحهم وساسهم أصلح سريرته مع الله وكفله رتبة ما بين السماء والأرض، فإن لله خلقًا لا يعلمهم إلا الله، ثم لا يزال يرتفع من سماء إلى سماء حتى يرتفع ويصل إلى محل القطب الغوث؛ وهناك يطلعه الله تعالى على غيبه، فلا تنبت شجرة ولا تخضر ورقة إلا بعلمه، وهناك يتكلم عن الله بكلام لا تسعه العقول، وربما ذهب به إيمان جماعة من المنكرين.

وكان ﷺ: إذا صعد الكرسي يسمع كلامه القريب والبعيد حتى أهل القرى حول أُمّ عَبِيدَةَ، ويعرفون جميع ما يتحدث به، مع أن صوته كان ضعيفًا، وكان الأطرش والأصمّ إذا حضرا يفتح الله أسماعهما لكلامه.

وكان: مشايخ الطريق يحضرونه، وكان: جلهم يبسط حجره، فإذا فرغ من وعظه ضموا حجورهم إلى صدورهم وقصوا الحديث إذا رجعوا إلى أصحابهم على حليته.

قال خادمه يعقوب: قلت يا سيدي، أنت القطب؟ فقال: نزِّه شيخك عن القطبانية فإن من كان في حضرة الله لا مقام له.

وسئل مرَّة: كيف كان سلوكك؟ فقال: مررت وأنا صغير على الشيخ عبد الملك الحربوني قال: يا أحمد، اسمع ما أقول لك: ((ملتفتٌ لا يصل، ومثله لا يفلح، ومن لم يعرف في نفسه النقصان، فكل أوقاته نقصان))، فخرجت من عنده وجعلت أكررها سنة، ثم رجعت إليه فقلت: أوصني؟ فقال: ((ما أقبح الجهل بالأولياء، والعلة بالأطباء،

والجفاء بالأحبَّة))، ثم خرجت وصرت أكررها سنة، فانتفعت بكلامه لكونه اختصر لي الطريق، قلت: ولم نطَّلِع له على شيخ في طريق التربية غير هذا، والله أعلم[1].

❖ ❖ ❖

(1) تنبيه: إنَّ المؤلف لخَّص ترجمة سيدنا الرفاعي من طبقات الشعراني، وقد تقدمت الإشارة إلى أننا تحدثنا عن جميع مشايخه وأسانيده الشريفة في الأصل فليُراجع.

[العظمة والكبرياء لله وحده ﷻ]

وهذه (أول القصيدة) التي أردنا الكلام عليها:

يا من تعاظم حتى رق معناه ... ولا تردى رداء الكبر إلا هو

جقلت: يقول ﷺ: يا من تعاظم في شدَّة ظهور أنواره، وتجليات أسراره، فما زال يظهر للبصائر، ويتجلى للسرائر، حتى خفا معناه، ورقَّ عن مدارك العقول نور جماله وسناه، فما احتجب إلا من شدّة ظهوره، وما منع الأبصار أن تدركه إلا قهارية نوره، ولله در القائل:

لقد ظهرت فما تخفى على أحد ... إلا على أكمه لا يبصر القمرا

لكن بطنت بما أظهرت محتجبًا ... وكيف يُبصر من بالعزة استترا

قال آخر:

وما احتجبت إلا برفع حجابها ... ومن عجب أن الظهور تستر

وقول الششتري في هذا المعنى:

يا من بدا ظاهرًا حين استتر ... ثم اختفى باطنًا لما ظهر

ظهرت ولم تخف على أحد ... وغبت ولم تظهر لكل أحد

وفي (الحكم العطائية): ((يا من احتجب في سرادقات عزّه عن أن تدركه الأبصار، ويا من تجلّى بكمال بهائه فتحققت بعظمته الأسرار، كيف تخفى وأنت الظاهر، أم كيف تغيب وأنت الرقيب الحاضر))، وقال أيضًا: ((إلهي؛ كيف يستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلُّ عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، إلهي؛ عميت عين لا تراك عليها رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لم يجعل من حبك نصيبًا))، فالعارفون لا يشهدون سوى الله، ولا يرون في الكونين إلا إيّاه قال بعضهم: لو كلفت أن أرى غيره لم أستطع فإنه لا غير معه حتى أشهده، وقال الشاعر:

مــذ عرفــت الإلــه لــم أر غيــره وكــذا الغيــر عنــدنا ممنــوع
مـذ تجمعـت مـا خـشيت افتراقًـا فأنـا اليـوم واصـل مجمـوع

وبالجملة: فاسمه الظاهر يقتضي بطون الأشياء وتلاشيها، إذ لا ظاهر معه بدليل الحصر في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: 3]، واسمه الباطن يقتضي ظهور الأشياء به ليتحققوا من اسمه الباطن بالنسبة إلى ظاهر حِسّها، فهو الظاهر في حال بطونه، والباطن في حال ظهوره.

قال في (الحكم): ((أظهر كل شيء بأنه الباطن، وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر، ولا يذوق هذا على الكمال إلا مَنْ مَنَّ الله عليه بصحبة الرجال، ومن لم يصحب الرجال بقي خفاشيًّا كلما اشتدَّ النور انطمس بصره))، وها هنا احتمال آخر أرقُّ من الأول وهو أن يقول: يا من تعاظم في ظهور أسرار ذاته، وأنوار صفاته في مظاهر تجلياته، حتى رقَّت ولطفت معاني الذات في أنوار الصفات.

فأنوار الصفات أواني.

وأسرار الذات معاني.

فالمعاني قائمة بالأواني، والأواني حاصلة للمعاني، فلا قيام للأواني إلا بالمعاني، ولا ظهور للمعاني في مظاهر الأواني، فمن وقف مع ظاهر الأواني حجب عن شهود المعاني، ومن نفذ إلى شهود المعاني غاب عن شهود حس الأواني، ولذلك قال الشshتري رضي الله عنه: ((لا تنظر إلى الأواني، وخض بحر المعاني لعلك تراني، فكلما تلطّفت الأواني بالغيبة عن حِسّها ظهرت معاني الذات في أنوار الصفات، وكلما تكشفت الأواني باشتغال القلب بحِسّها الظاهر حجبت المعاني ورقت وخفيت))، ولذلك قال ابن الفارض في (خمريته): ((ولطف الأواني في الحقيقة تابع للطف المعاني، والمعاني بها تسمو))، ولما سئل الجنيد رضي الله عنه عن التوحيد؟ أنشد يقول:

رق الزجــاج ورقــت الخمــر فتــشابها وتــشاكل الأمــر

وقلت في (تائيتي الخمرية):

لرقـة خمـر فـي الأوانـي تلطفـت أواني معـاني الخمـرة في أصـل نـشأة

فطورًا تغيب الخمر في جرم كأسها وطورًا تغيب الكأس في خمرة نشوة

وغيب الأواني في المعاني محقق فناء الأواني في المعاني القديمة

وفي القرآن العظيم تلويحات وإشارات إلى هذه المعاني اللطيفة والأنوار الربانية كقوله تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [النور: 35]، وكقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ يَعۡلَمُ سِرَّكُمۡ وَجَهۡرَكُمۡ وَيَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُونَ ٣﴾ [الأنعام: 3]، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: 10]، وكقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 101].

قال في (الحكم): ((أمرك أن تنظر ما في المكونات، وما أمرك أن تقف مع ذوات المكونات: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: 101] فتح لك باب الإفهام ولم يقل: انظروا السماوات، فيدلك على وجود الأجرام))، وقد حققنا هذا المعنى في شرحنا على (الحكم) فانظره إن شئت.

وفي الحديث القدسي ما يشير إلى هذا المعنى قال ﷺ: «**يَقول الله ﷻ: يَا عبدِي، مرضتُ فلم تَعُدني، فيقول: يا ربِّ، كيفَ أعودُك وأنتَ ربُّ العالمينَ؟ فيقول الله ﷻ: لقد مَرضَ عَبدي فلانٌ فلم تعُده، أما إنك لو عُدتهُ لوجدتَني عندهُ**»[1]، على ما في بعض الروايات، ولا يفهم هذه الأسرار إلا من خاف مقام الفناء والبقاء وتربى على يد شيخ كامل محقق، وإلا فحسبه التسليم لما رمزوه وأشاروا إليه:

إن لم تر الهلال فسلّم لأناس رأوه بالأبصار

وإياك أن ترميهم بما رموهم به من لم يعرف مقامهم، ولم يشرب من مشربهم كالاتحاد والحلول، فإنهم منزهون عنه، إذ لم يبق للسوى عندهم وجود حتى يصح الاتحاد والحلول، إلى ذلك أشرت في (تائيتي الخمرية) في وصف الخمرة الأزلية بقولي:

تنزهت من حكم الحلول في وصفها فليس لها سوى في شكله حلتي

(1) رواه مسلم برقم: (2569).

قال في (الحكم): ((يا عجبًا، كيف يظهر الوجود في العدم، أم كيف يثبت الحديث مع من له وصف القدم)).

وقال رجل بين يدي الجنيد: الحمد لله، ولم يزد رب العالمين فقال له الجنيد: كمله يا أخي، فقال له الرجل: أي قدر للأشياء حتى تُذكر معه؟ فقال الجنيد: كمله يا أخي، فإن الحادث إذا قرن بالقديم تلاشى الحادث وبقي القديم، انتهى وبالله التوفيق.

وقوله: ولا تردَّى رداء الكبر إلا هو؛ يشير إلى اختصاصه تعالى بالكبرياء وغاية التعالي، كما اختص بالعظمة وكمال التجلي، وكأنه يشير إلى الحديث القدسي: «**يَقول الله ﷻ: العظمةُ إزارِي، والكبرياءُ ردائِي، فمن نَازعني فِي واحدةٍ منهما قَصمته**»[1]، فالعظمة ترجع إلى كمال أنوار الملكوت، والكبرياء ترجع إلى تعظيم أسرار الجبروت، لأن الملكوت ظهرت أنواره في التجليات وهو ما ظهر في عالم الشهادة على وجه الجميع، والجبروت: ما لم يظهر في عالم الشهادة وهو من عالم الغيب وهو الذي كان كنزًا لم يعرف، وإليه أشار ابن الفارض بقوله:

صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ونور ولا نار وروح ولا جسم
تقدم كل الكائنات حديثها قديمًا ولا شكل هناك ولا رسم

ولذلك خصصت العظمة بالإزار لأن من شأنه أن يكون للأسفل والرداء للأعلى، وأنوار الملكوت ظهرت في عالم الشهادة، وأنوار الجبروت أحاطت بها وارتفعت عن مدارك العقول فهي أرفع وأعلى منها مع كونها لا تنفك عنها، إذ عالم الملكوت قائم بأسرار الجبروت، فما احتجبت أسرار الجبروت إلا بأنوار الملكوت، ولا قامت أنوار الملكوت إلا بأسرار الجبروت، وهما في الحقيقة شيء واحد، وما افترقا إلا باعتبار مدارك السالكين، فأول ما يفتح للمريد عن أنوار الملك الحِسّي، فإذا تفكر فيه واعتبر أدرك عظمة الصانع، فإذا تفرغ من الشواغل وتطهرت مرآة قلبه من الصدأ

---

(1) رواه مسلم برقم: (2620) ولفظه: «**العظمةُ إزَاري، والكبرياءُ ردَائي، فَمن نَازعني واحدًا منهُما عذَّبتهُ**»، وأبو داود برقم: (4090)، ولفظه: «**الكبرياءُ ردائِي، والعظمةُ إزاري، فمَن نازعني واحدًا منهُما قَذفتُه في النَّارِ**».

أشرقت عليه أنوار الملكوت، فإذا تمكن من الشهود وبلغت الروح غاية الصفاء أشرقت عليه أسرار الجبروت، فيحجب حينئذ عن عالم الملك والملكوت، وصار لا يشاهد إلا أسرار الجبروت.

فرداء الكبرياء؛ هو الاحتجاب لحجاب القهرية عن مدارك العقول مع كمال ظهوره، وفي الحديث الصحيح في صفة أهل الجنة: «**مَا بينَ القومِ، وبينَ أن ينظرُوا إلى ربِّهم، إلّا رِدَاء الكِبر على وجهِهِ في جنّةِ عدنٍ**»[1].

والمراد به: إسدال حجاب الحِسّ والقهرية على وجه معاني أسرار الذات العالية، إذ لا حجاب بين الله وبين خلقه إلا قهرية نوره، وشدَّة ظهوره، وتوهم وجود الغيرية، ولقد سمعت شيخنا البوزيدي ﷺ يقول: ((والله، ما حجب الخلق عن الله إلا الوهم، والوهم أمر عدمي لا حقيقة لوجوده)). أي: ما حجبهم عن الشهود إلا وجود الغيرية؛ وهي في الحقيقة منتفية.

وفي (الحكم): ((ما حجبك عن الله وجود موجود معه، إذ لا شيء معه، وإنما حجبك توهم موجود معه))، وقال أيضًا: ((الحق ليس بمحجوب عنك، إنما المحجوب أنت عن النظر إليه، إذ لو حجبه شيء لستره ما حجبه، ولو كان له ساتر لكان لوجوده حاصر، وكل حاصر شيء؛ فهو له قاهر، وهو القاهر فوق عباده))، وقال أيضًا: ((مما يدلك على وجود قهره أن حجبك عنه بما ليس بموجود معه))، وقد أشرت إلى هذا في (تائيتي) في وصف الخمرة الأزلية فقلت:

تجلّت عروسًا في مرائي جمالها وأرخت ستور الكبرياء لعزة

ولا يذوق هذه إلا من كحل عين بصيرته بإثمد التوحيد الخاص حتى تنفتح بصيرته، فيبصر أنوار المعاني خلف رداء الأواني، وإلا بقي أرمد العين كلما طلعت الشمس انطمس بصره كما قال البوصيري ﷺ:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

وبالله التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

---

(1) رواه البخاري برقم: (4878)، ومسلم برقم: (180؛ 2838).

[فناء خواص الأولياء في محبَّة الله تعالى]

ثم قال ﷺ:

تــاهوا بحبــك أقــوام وأنــت لهــم نعــم الحبيــب وإن هــاموا وإن تــاهوا

قلت: التيه هنا: هو التلف والخروج عن الطريق المعتاد، والحب: هو الميل الدائم بالقلب الهائم، وأقوام: فاعل تاهوا على لغة أزد شنوءة، وهام على وجهه: إذا سار على غير قصد.

يقول ﷺ: إن أقوامًا من خواص المحبين لما أطلعهم الله على أسرار عظمة ذاته، وكشف لهم شيئًا من رداء كبريائه، تاهت عقولهم، وهامت قلوبهم، وطاشت أرواحهم في محبته، ففارقوا الأوطان والديار، وألفوا البراري والقفار، وتأنسوا بالحبيب، واشتغلوا بمناجاة القريب، فهم بين سالك ومجذوب، ومحب ومحبوب، فمنهم العباد والزهاد، ومنهم الأبدال والأوتاد، عمروا قلوبهم بمحبَّة المحبوب، ورفضوا ما سواه من كل مرغوب، وهذه محجة الطالبين أو السائرين من المريدين.

وأما الواصلون إلى المحبوب من العارفين المقربين؛ سكنت قلوبهم، واطمأنت بمشاهدة الحبيب، ومناجاة القريب؛ فهم يشاهدون الحبيب في مرائي تجلياته، وآثار صفاته، فلم يحجبهم الخلق عن مشاهدة الحقِّ، بل هم محجوبون بالجمع عن الفرق، وبمشاهدة الحقِّ عن رؤية الخلق.

بل، لو كلفوا أن يشاهدوا غيره لم يستطيعوا، فهولاء يردهم الحقُّ تعالى إلى مرافقة الخلق ومخالطتهم ليقع الانتفاع بصحبتهم؛ فهم مستأنسون بالحقِّ في حال مخالطتهم للخلق لأنهم عرفوا الله في كل شيء، فلم يستوحشوا من شيء، أشباههم بين الخلائق تسعى، وأرواحهم في أنوار الملكوت ترعى، وإلى حال الفريقين أشار في (الحكم) بقوله: ((إنما استوحش العباد والزهاد من كل شيء لغيبتهم عن الله في كل شيء، ولو عرفوا الله في كل شيء ما استوحشوا من شيء))، وقال أيضًا: ((من عرف الله رآه في كل شيء، ومن فنى به غاب عن كل شيء، ومن أحبه آثره على كل شيء)).

والحاصل: أن المحبَّة لها بدايات؛ وهي ما ذكره الشيخ في حال التائهين والهائمين، ونهايات؛ وهي السكون والطمأنينة في حضرة المحبوب، ولذلك قال بعضهم: ((المحبَّة؛ أولها جنون ووسطها فنون وآخرها سكون)) وإلى هذا المعنى أشارت رابعة العدوية ﵂:

أحبك حبين حب الهوى وحب أنت أهل لذاك

فأما الذي هو حب الهوى فشغلي بذكرك حتى ألقاك

وأما الذي أنت أهل له فكشفك الحجاب حتى أراك

أشارت ﵂ إلى ذكر المقامين: بداية ونهاية أو نقول: محبَّة المحبِّين ومحبَّة المحبوبين أو نقول: محبَّة السائرين ومحبَّة الواصلين، وإنها سلكت الأمرين معًا.

فحبُّ الهوى: هو حبُّ العشق والتملق من وراء الحجاب، وعلامته: اللهج بذكر المحبوب، والاشتغال بخدمته، والفرار من الخلق للقاء الحقِّ.

وأما حبُّ الواصلين: فثمرته كشف الحجاب، والدخول مع الأحباب، ومشاهدة الحبيب في كل شيء من تجلياته كما قال صاحب (العينية):

تجلى حبيبي في مرائي جماله ففي كل مرأى للحبيب طلائع

فلما تبدى حسنه متنوعًا تسمى بأسماء فهي مطالع

وعلامة صاحب هذا المقام: سكون ظاهره من تعب الخدمة، وعمارة قلبه بنور الكبرياء والعظمة، أو تقول علامته: سكون القلب وطمأنينته عند هيجان رياح الأقدار، وورود التعريفات من الواحد القهار، وقال بعضهم: علامة المحبَّة أربعة أشياء: ((الإكثار من ذكره، وامتثال أمره، واجتناب نهيه، والاستسلام لقهره)).

واعلم: أن الباعث على المحبَّة أمران: إما الذاتي أو الإحسان الفعلي، وقد اجتمعا في ذات الحقِّ تعالى.

وأما الجمال: فلا أجمل من جماله تعالى ولا أعظم، إذ جماله يسبي العقول ويدهش الألباب، وقد ورد أهل الجنة إذا تجلى لهم الحقُّ ﷻ ذهلوا وغابوا عما كانوا فيه من النعيم الحِسّيّ، فلولا أن الله تعالى يردّهم إلى حِسّهِم بإسدال الحجاب فيما بينه

وبينهم ما تنعَّموا بشيء من النعيم الحِسّيّ، وما ظهر في عالم الشهادة من الجمال، فإنما هو رشحة من رشحات جماله الأصلي كما قال ابن الفارض:

عينـــي لغيـــر جمـــالكم لا تنظـــر وســـواكم فـــي خـــاطري لا يخطـــر

وبقدر ما تصفو الروح من غبش الحِسِّ وتترقى إلى عالم الملكوت، يكشف لها عن جمال الحضرة، وتتنعَّم بجمال الحبيب، وبقدر ما تتعلق بهذا العالم الحِسّي ويكثر شغلها به، تحجب من شهود جمال الحضرة، ولذلك قال بعضهم: حضرة القدُّوس مُحرَّمة على أهل النفوس، وقال الشاعر:

أيهـــا العاشـــق معنـــى حبنـــا مهرنـــا غـــال لمـــن يخطبنـــا
جـــسد مـــضني وروح فـــي العنـــا وجفـــون لا تـــذوق الوســـنا
وفـــؤاد لـــيس فيـــه غيرنـــا وإذا مـــا شـــئت أد الثمنـــا
وافـــن إن شـــئت فنـــاءً ســـرمدا فالفنـــا يـــدني إلـــى ذاك الفنـــا
واخلـــع النعلـــين إن جئـــت إلـــى ذلـــك الحـــيّ ففيـــه قدســـنا
وعـــن الكـــونين كـــن منخلعـــا وأزل مـــا بيننـــا مـــن بيننـــا
وإذا قيـــل لمـــن تهـــوى فقـــل: أنـــا مـــن أهـــوى ومـــن أهـــوى أنـــا

وأما الباعث الثاني وهو الإحسان: فلا شك أن النفس تميل إلى من أحسن إليها، ولا إحسان إلا منه تعالى، ولا نعم ظاهرة وباطنة إلا من فضله تعالى وثوابه، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: 53]، وقال تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: 20]، فأنعم أولًا بنعمة الإيجاد، وأنعم ثانيةً بتوالي الإمداد، وأفضل النعم وأعظمها الهداية إلى الإيمان والإسلام، والوصول إلى معرفته تعالى، والاطلاع إلى جلاله وجماله، فهذه النعمة المعتبرة عند الأكياس.

وأما النعم الحِسّية: فقد اشترك فيها البهائم وسائر الناس وبالله التوفيق.

وقوله: وأنت لهم نعم الحبيب يعني: أن أقوامًا تاهوا في حب الحبيب، وطاشت عقولهم بقرب القريب، وخربوا ظواهرهم، وعمروا بواطنهم، وغابوا عن الأسباب بمشاهدة

مسبب الأسباب، كان الحقُّ تعالى نعم الحبيب والمؤنس، أنسهم في بواطنهم، وقدم لهم بما يحتاجون إليه في ظواهرهم، قاموا بخدمته، وقام لهم بإيصال قسمته، من انقطع إلى الله كفاه الله مؤونته، ورزقه من حيث لا يحتسب كما قال ﷺ، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: 2، 3]، وقال بعضهم: ((العلم كله مجموع في كلمتين: لا تتكلف بما كفيت، ولا تضيع ما استكفيت)) أي: لا تتكلف ما كفيت أمره من الرزق المقسوم، ولا تضيع ما استكفيت الفرض المحتوم.

وقوله: وإن هاموا وإن تاهوا؛ يشير إلى منطوقه ومفهومه إلى حال الفريقين؛ أعني: حال أهل البداية: وهم الهائمون التائهون، ويسمون أهل السكر وأهل الخمرة وهم المجذوبون، وحال النهاية: وهم السالكون المطمئنون، وهم أهل الصحو السالكون بعد السكر الجذب، فأخبر: أنَّ الحقَّ تعالى هو حبيب ونعم الحبيب للجميع، أي: وأنت لهم نعم الحبيب هذا إن سكنوا واطمأنوا، بل وإن هاموا وإن تاهوا، ولا شك أن ما قبل المبالغة أوكد وأعظم مما بعدها؛ كما هو مفهوم من تراكيب العرب تقول: أكرم زيدًا وإن جاء عاصيًا أي: هذا إن جاء طائعًا، بل وإن جاء عاصيًا، ولا شك أن المطمئنين الراسخين أعظم عند الله من العاشقين التائهين، لأن الأولين واصلون، والآخرين سائرون، والله أعلم.

واعلم: أن المخصصين بالمحبَّة على ثلاثة أقسام:

قسم سالكون فقط.

وقسم مجذوبون فقط.

وقسم سالكون مجذوبون، فالجذب في مواطنهم والسلوك في ظواهرهم.

فالأولون: لا يصلحون للتربية، إذ لا جذب في قلوبهم يجذبون به قلب المريد إلى الحضرة، ولا همة عندهم تنهض إلى الخدمة قال في (الحكم): ((لا تصحب من لا ينهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله)).

والقسم الثاني: أيضًا لا يصلح للتربية لأنه مطموس الأثر، غريق الأنوار، غلب سكره على صحوه فلا يعرف سلوك الطريق لغلبة سكره.

وأما الثالث: وهو الجامع بين جذب وسلوك، فهو الذي يصلح للتربية لكماله، لكونه سلك الطريق وعرف وعرها وسهلها وجدبها وخصبها، سلك طريق الجذب وذاق أسرارها، ثم رجع إلى طريق السلوك وحقق آثارها؛ فالجذب في باطنه لا يزول، والسلوك في ظاهره لا يحول، فهو جامع بين جذب وسلوك، معتدل في أموره كلها، لم يغلب سكره على صحوه ولا صحوه على سكره، ولا جمعه على فرقه ولا فرقه على جمعه، ولا حقيقته على شريعته ولا شريعته على حقيقته، يعطي كل ذي حق حقه، ويوفي كل ذي قسط قسطه، نفعنا الله ببركاته وأفاض علينا من سرِّه.

وقد أدركناهم والحمد لله وشهدناهم، وأخذنا منهم وصحبناهم، فلله المنة والفضل، والعجب كل العجب ممن ينكر وجودهم، ويسدُّ باب الرحمة على عباد الله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]، ولله در القائل:

وكم عائد ليلًا لم ير وجهها ... فقال له الحرمان: حسبك ما فات

وحقيقة الجذب: هو شهود حق بلا خلق.

وحقيقة السلوك المحض: هو شهود خلق بلا حق.

وحقيقة السلوك بعد الجذب: هو شهود خلق بحق أو شهود حق مع خلق.

ولا يذوق هذه المعاني إلا من سلك الطريق على أيدي الرجال ذوقًا وكشفًا، وإلا فشأنه الإيمان بالغيب، وبالله التوفيق(1).

---

(1) فائدة: قال المؤلف عند شرحه هذا البيت:

فهذه أحوال ذي الأحوال ... تُدرك بالأفعال لا الأقوال

إن تدريج السالك في هذه الأحوال والمقامات هي أحوال أهل الأذواق والوجدان من أرباب الأحوال، وهي إنما تدرك بالأعمال: مجاهدة ومكابدة ثم مشاهدة، قال الجنيد ﷺ: ((ما أخذنا التصوف عن القيل والقال والمراء والجدال، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر وكثرة الأعمال)). الفتوحات الإلهية (ص270).

[صيانة سر الحقيقة]

وقال ﷺ:

ولـي حبيـب عزيـز لا أبـوح بـه ... أخـشى فـضيحة وجهـي يـوم ألقـاه

الحبيب: هو المحبوب، إلا أنَّ فعيل أبلغ من مفعول، والعزيز: يطلق على القليل الوجود الذي لا نظير له، ويطلق على الغالب القاهر.

ولعل المراد هنا غير هذين، وإنما أراد بالعزيز هنا البالغ في المعزة والمحبوبية كما تقول العامة: فلان عندي حبيب عزيز قد بلغت محبته في قلبي الغاية القصوى، فلما عشقته وأحببته أطلعني على مكنون سرِّه، وكشف لي عن أستار غيبه، فلا أبوح بسرِّه، ولا أطلع أحدًا عليه من غير أهله، فإنني إن بحت بسرِّه، وكشفته لغير أهله، أخاف أن يفضحني يوم لقائه فيقول: يا عبدي، قد أطلعتك على سرِّي، وأمنتك على غيبي، ثم أفشيته لغيري، فاليوم أحرمك من نعيم حضرتي، لكونك لم تكتفِ بعلمي، ولم تصن سرِّي.

قلت: والغالب أن هذا العتاب يقع قبل اللقاء في دار الدنيا، فإنَّ (كلَّ من أفشى سرِّ الربوبية، سلَّط الله عليه سيف الشريعة، فيُباح دمه، ويُهتك عرضه)، كما وقع للحلاج وغيره، وفي ذلك يقول الشاعر:

من شهد الحقيقة فليصنها ... وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبَّة إذ تبدت ... له شمس الحقيقة بالتداني
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماء البائحين تباح
وفي السر أسرار دقاق لطيفة ... تراق دمانا جهرةً لو بها بحنا

قال بعض الصالحين: رأيت رب العزة في النوم فقلت: يا رب، كيف سلطت عبادك على وليّك الحلاج حتى قتلوه؟ فقال: ((يا عبدي، إني أطلعته على سرٍّ من أسراري فأفشاه لغيري، فسلَّطتُ عليه عبادي فقتلوه)) انتهى بالمعنى، ومن كلامه الذي قتل

بسببه[1]: أنا أنت بلا شك، فسبحانك سبحاني، وتوحيدك توحيدي، وعصيانك عصياني، وكقوله ﷺ:

ســـبحان مـــن أظهـــر ناســـوته	ســـر ســـنا لاهوتـــه الثاقـــب
ثـــم بـــدا فـــي خلقـــه ظـــاهرًا	فـــي صـــورة الآكـــل والـــشارب
حتـــى لقـــد عاينـــه خلقـــه	كلحظـــة الحاجـــب بالحاجـــب

ولما تقدم له السياف ليضرب عنقه وجده يقول ويضحك:

نـديمي غيـر منـسوب إلـى الحيـف	سقاني من شراب الحب كسقي الضيف للضيف
فلما دارت الأكواس دعا بالنطع والسيف	كذاك من يشرب الراح مع الأمير في الصيف

ثم قال: اللهم إنك متودد لمن يؤذيك، فكيف لا تتودد لمن يؤذى فيك، فها أنا في دار العجائب أتعجب في الغرائب ثم قال:

يـا لائـم فـي هـواه كـم تلـوم	فلو عاينت منه الذي عاينت لم تلم
للناس حج ولي حج إلى سكني	تهدى الأضاحي وأهدي مهجتي ودم
يطـوف بالبيـت قـوم بـلا جارحـة	بـالله طـافوا فأغنـاهم عـن الحـرم

قال له الشبلي: يا أبا المغيث، ما معنى التفرّد؟ فقال له: هو أن ينفرد العبد بالواحد الفرد فإذا رآه الحق قد انفرد عن الخلق، أمنه من عذاب الطرد، فيصير للحق مشاهدًا، والحق على لسانه شاهدًا، فحينئذ يتخلف لمقام المعرفة، ويوحي إلى خاطره، ويحرس سرِّه عما سواه، فلا يرشح فيه غير الحق من حضرة الحق بالحق.

قال الشبلي ﷺ فقلت له: ما المعرفة؟ قال: استهلاك الحِسِّ في المعنى.

فقلت له: ما المحبَّة؟ قال: الغيبة عما سوى المحبوب.

---

(1) فائدة: قال المؤلف نقلًا عن ابن خلدون: ((قُتل الحلاج بفتوى أهل الظاهر وأهل الباطن - أهل الشريعة وأهل الحقيقة -، لأنه باح بالسرِّ فوجبت عقوبته، ولذا أفتوا بقتله: غيرةً على السرِّ أن يُفشى لغير أهله، فالواجب كتم الأسرار، وإظهار شريعة النبيِّ المختار ﷺ)). الفتوحات الإلهية (ص266).

فقلت له: ما الوجد؟ فقال: لهيب ينشأ من الشوق في الأسرار تضطرب به الجوارح ثم يزول؛ لأنه مقرون بالزوال، وتبقى نتيجته العرفانية لا تحول ولا تزول.

فقلت له ما الأنس؟ فقال: وجود الهيبة مع ارتفاع الخشية وغلبة الرجاء على الخوف.

ثم قال: يا شبلي، من راقب الله عند خطرات قلبه، عصمه عند حركات جوارحه.

ثم قال: يا شبلي، ألست تحفظ كتاب الله؟ فقال الشبلي: نعم، فقال: قد قال لنبيه ﷺ: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: 17]، يا شبلي، إذا رمى الله قلب عبده بحبة من حبه، نادى عليه مدى الأزمان بلسان العتاب.

وأيضًا: من أفشى سر الملك كان خائنًا، ومن كان خائنًا لا يؤمن على السر، فهو حقيق أن ينزع منه إن أفشاه لغير أهله، وإنما يؤمن على السر أهل الثقة والصيانة، كما قال القائل:

لا يكتم السر إلا ذو ثقة ... فالسر عند خيار الناس مكتوم

وقال آخر:

سأكتم علمي عن ذوي الجهل طاقتي ... ولا أنشر الدر النفيس على البهم

فإن قدر الله الكريم بلطفه ... ولاقيت أهلا للعلوم والحكم

بذلت علومي واستفدت علومهم ... وإلا فمخزون لدي ومكتتم

وقال سيدنا علي كرَّم الله وجْهه: ((حدّثوا الناس بقدر ما يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله)).

وقال رجل لبعض العلماء وقد سأله ولم يجبه: أما علمت أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن كتمَ علمًا ألجمهُ الله يومَ القيامةِ بلجَامٍ منَ النّارِ**»[1] فقال له العالم: اترك اللجام واذهب، فإن جاء من يستحقه وكتمته فألجمني.

---

(1) رواه ابن حبان برقم: (96)، والحاكم برقم: (346)، وبنحوه عند الترمذي برقم: (2649)، وأبي داود: (3658)، وأحمد: (7571)، وابن ماجه: (266).

وقال رسول الله ﷺ: «**أُمرتُ أن أخاطبَ النّاس على قدرِ عقُولِهم**»[1].

وقولنا لغير أهله، وأما من كان أهلًا له فلا بأس باطلاعه عليه؛ وهو من بذل نفسه وفلسه، وزهد في جنسه، وحطَّ رأسه لأقدام الرجال كما قال سيدي عبد الوارث اليلهوتي ﷺ: بذل النفوس، وحطِّ الرؤوس، وصفاء الكؤوس، لا إله إلا الله، وقال الشاعر:

يا من يلوم خمر المحبَّة فخذوا عنّي هي حلال
ومن يرد يسقى منها غبًا خذه يضع لأقدام الرجال

---

(1) قال الإمام العجلوني عند حديث: «**أمِرنا أن نُكلِّم الناس على قدرِ عُقولِهم**»، رواه الديلمي بسند ضعيف عن ابن عباس مرفوعًا، وفي اللآلئ بعد عزوه لمسند الفردوس عن ابن عباس مرفوعًا قال: وفي إسناده ضعيف ومجهول انتهى، وقال في المقاصد: وعزاه ابن حجر لمسند الحسن بن سفيان عن ابن عباس بلفظ: «**أُمرتُ أن أخاطبَ النّاسَ على قَدرِ عُقولِهم**» قال: وسنده ضعيف جدًّا، ورواه أبو الحسن التيمي من الحنابلة في العقل له عن ابن عباس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي أيضًا بلفظ: «**بُعثنا معاشرَ الأنبياء نُخاطبُ النّاس على قدرِ عُقولِهم**»، وله شاهد عن سعيد بن المسيب مرسلًا بلفظ: «**إنّا معاشرَ الأنبياء أمِرنا**» وذكره، ورواه في الغنية للشيخ عبد القادر قدّس سره بلفظ: «**أُمرنا مَعاشر الأنبياء أن نحدِّثَ النّاس على قدر عُقولِهم**»، وفي صحيح البخاري عن علي موقوفًا: ((حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله))، ونحوه ما في مقدمة صحيح مسلم عن ابن مسعود قال: ((ما أنت بمحدِّث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة))، وروى العقيلي في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في الرياضة وغيرهم عن ابن عباس مرفوعًا: «**ما حدَّثَ أحدكم قومًا بحديثٍ لا يفهمونهُ إلّا كانَ فتنةً عَليهِم**»، ورواه الديلمي أيضًا من طريق حماد بن خالد عن ابن عباس رفعه: «**لا تحدِّثوا أمّتي من أحادِيثي إلّا ما تحمِله عُقولهم، فيكونُ فتنةً عليهم**»، فكان ابن عباس يخفي أشياء من حديثه، ويفشيها إلى أهل العلم، وللديلمي أيضًا عن ابن عباس رفعه: «**يا ابنَ عباس، لا تحدِّث قومًا حديثًا لا تَحتمِله عُقولهم**»، وروى البيهقي في الشعب عن المقدام بن معدي كرب مرفوعًا: «**إذا حدَّثتم النّاس عن ربّهم فلا تحدِّثُوهم بِما يعزبُ عنهم ويشقُّ علَيهم**»، وصح عن أبي هريرة: ((حفظت عن النبي ﷺ وعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم)). كشف الخفاء (225/1 - 256).

رأســـي خططـــت بكـــل شــــيباهم المـــــــــوالي ســــــــقوني زلال

فكل من لم يحط رأسه لأهل السر ولم يتحكم لهم، فاطلاعه على سر الربوبية حرام، والمراد بسر الربوبية: التوحيد الخاص؛ الذي هو الشهود والعيان المخصوص بأهل العرفان ﭫ ونفعنا بهم، وهو الذي أراد الناظم بقوله: لا أبوح به أي: لا أبوح بسرِّه، ولا أُطلِع عليه أحدًا غير أهله، والله تعالى أعلم.

[الحب تعلق القلب بين الهمة والأنس]

ثم قال ﭬ:

أغـــالط النـــاس طـــرًّا فـــي محبتـــه ولـيس يعلـم مـا فـي القلـب إلا هـو

أريهـــــم أننـــــي بغيـــــره ولـــــــــه ولـيس يعلـم مـا فـي القلـب إلا هـو

المغالطة: إظهار الغلط وإيقاع الغير فيه مع إخفاء الصواب، وتسمى عند الصوفية: التلبيس، كإظهار الرغبة وإخفاء الزهد، وإخفاء المحبَّة وإظهار السلوان، يفعلون ذلك صيانةً للسر، وتحقيقًا لمقام الأخلاق، ومنه تخريب الظاهر، وتعمير الباطن، إلى غير ذلك من أحوال الصوفية ﭫ.

والمحبَّة: أخذ جمال المحبوب بمحبَّة القلب حتى لا يمكنه الالتفات إلى غيره، ولا العمل بما فيه رضاه إيثارًا له عما سواه يقول ﭬ: إنني أغالط الناس جميعًا في محبَّة المحبوب، فأظهر لهم السلوان عنه والاشتغال بغيره وأخفي عنهم الاستغراق في شهوده ودوام ذكره اكتفاءً بعلمه وغيرةً على سرِّه أن يظهر لغير أهله، وأظهر لهم الجهل وأخفي عنهم العلم والمعرفة له، وأظهر لهم الرغبة في الدنيا وأخفي عنهم الزهد فيها، وأظهر لهم الحمق والسفه وأخفي عنهم العقل والسكينة، وأظهر لهم مخالطة أهل الدنيا وأخفي عنهم العزلة في قلبي؛ فالقلب مع الحق، والجسم مع الخلق، وأظهر لهم محبَّة الملوك ومخالطتهم وأخفي عنهم الغيبة عنهم بشهود ملك الملوك، وفي هذا المعنى قال الجنيد ﭬ: ((لي أربعون سنة أناجي الحق، والناس يرون أني أناجي الخلق)) إلى

غير ذلك من أحوال المحبَّة والمعرفة، وقد تكلم الناس في المحبَّة، وأكثروا الكلام فيها كل على قدر منهاله وشربه.

قال القطب ابن مشيش ﷺ: ((المحبَّة: أخذة من الله قلب من أحبَّ بما يكشف من نور جماله وقدس كمال جلاله، وشراب المحبَّة: مزج الأوصاف بالأوصاف، والأخلاق بالأخلاق، والأنوار بالأنوار، والأسماء بالأسماء، والنعوت بالنعوت، والأفعال بالأفعال، ويتسع فيه النظر لمن شاء الله ﷻ، والشراب: سقي القلوب والأوصال والعروق من هذا الشراب حتى يسكر ويكون الشرب بالتدريب، بعد التدريب والتهذيب، فيسقى كل على قدره، فمنهم من يسقى بغير واسطة والله ﷻ يتولى ذلك، ومنهم من يسقى من جهة الوسائط كالملائكة والعلماء والأكابر من المقربين، فمنهم من يسكر بشهود الكأس ولم يذق بعد شيئًا، فما ظنك بعد بالذوق، وبعد بالشراب، وبعد بالري، وبعد بالسكر، وبعد بالمشروبات.

ثم الصحو بعد ذلك على مقادر شتى كما أن السكر أيضًا كذلك، والناس مغرفة الحقِ، يغرف بها من ذلك الشراب الطهور المحض الصافي لمن يشاء من عباده المخصوصين من خلق، فتارة يشهد الشارب ذلك الكأس صورة، وتارة يشهدها معنوية، وتارة يشهدها علمية.

فالصورة: حظ الأبدان والنفوس.

والمعنوية: حظ القلوب والعقول.

والعلمية: حظ الأرواح والأسرار.

فيا له من شراب ما أعذبه، فطوبى لمن شرب منه، ودام ولم يقطع عنه، نسأل الله من فضله: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة: 4]، وقد يجتمع جماعة من المحبين فيسقون من كأس واحدة، وقد يسقون من كؤوس كثيرة، وقد يسقى الواحد بكأس وبكؤوس، وقد تختلف الأشربة على حسب عدد الأكواس، وقد يختلف الشرب من كأس واحدة، وإن شرب منه الجمَّ الغفير من الأحبَّة)) انتهى كلام القطب ابن مشيش.

وقال تلميذه الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: ((المحبَّة: آخذة من الله قلب عبده عن كل شيء سواه، فترى النفس مائلةً لطاعته، والعقل متحصنًا بمعروفه، والروح مأخوذةً في حضرته، والسر مغمورًا في مشاهدته، والعبد يستزيد من حبه، فيزاد ويفاتح بما هو أعذب من لذيذ مناجاته، فيكسى حلل التقريب على بساط القربة، ويمسَّ أبكار الحقائق، وثيبات العلوم، فمن أجل ذلك قالوا: الأولياء عرائس؛ ولا يرى العرائس المجرمون.

ثم قال: الشراب: هو النور الساطع من جمال المحبوب، والكأس: هو اللطف الموصل ذلك إلى أفواه القلوب، والساقي: هو المتولي ذلك لخصوص الكبراء والصالحين من عباده، والله هو العالم بالمقادير ومصالح العباد[1].

فمن كشف له عن هذا الجمال، وحظي بشيء منه نفسًا أو نفسين أو أرخي عليه الحجاب؛ فهو الذائق المشتاق.

ومن دام له ذلك ساعة أو ساعتين فهو الشارب حقًّا.

---

(1) فائدة: قال المؤلف في تعريفاته عن هذه المصطلحات (الخمرة والكأس والشراب) عند القوم: ((أمَّا الخمرةُ: فقد يطلقونها على الذات العلية قبل التجلِّي، وعلى الأسرار القائمة بالأشياء بعد التجلِّي، فيقولون: الخمرة الأزلية تجلَّت بكذا ومن نعتها كذا، وقامت بها الأشياء تستُّرًا على سرِّ الربوبية، وعليها غنَّى ابن الفارض في خمريته، وإنما سموها خمرية؛ لأنها إذا تجلَّت للقلوب غابت عن حِسِّها كما تغيب بالخمرة الحِسِّيَّة، وقد يطلقونها على نفس السكر والوجد والوجدان، ويقولون: كنا في خمرةٍ عظيمة، أي في غيبة عن الإحساس كبيرة، وعلى هذا غنَّى التستري حيث قال:

خمرُها دون خمري خمرتي أزليه

أي: سكر خمرة الدَّوالي دون خمرتي، وأمَّا الكأسُ الذي تشرب منه هذه الخمرة: فهو كناية عن سطوع أنوار التجلِّي على القلوب عند هيجان المحبَّة، فَتُدخِلُ عليها حلاوة الوجد حتى تغيب، وذلك عند سماعٍ أو ذكرٍ أو مذاكرةٍ، وقيل: الكأسُ هو قلب الشيخ، فقلوب الشيوخ العارفين كؤوسٌ لهذه الخمرة، يسقونها لمن صحبهم وأحبَّهم، والشربُ: حضور القلب واستعمال الفكرة والنظرة حتى تغيب عن وجودك في وجوده؛ وهو السكر، فـ (الشرب والكأس) متصلان في زمن واحد في هذه الخمرة، بخلاف خمرة الدنيا))، معراج التشوق (ص98 - 99).

ومن توالى عليه الأمر ودام له الشرب حتى امتلأت عروقه ومفاصله من أنوار الله المخزونة فذلك هو الري.

وربما غاب عن المحسوس والمعقول فلا يدري ما يُقال ولا ما يقول فذلك هو السكر، وقد تدور عليهم الكاسات وتختلف لديهم الحالات ويردون إلى الذكر والطاعات ولا يحجبون عن الصفات مع تزاحم المقدورات فذلك وقت صحوهم، واتساع نظرهم، ومزيد علمهم، فهم بنجوم العلم وقمر التوحيد يهتدون في ليلهم، وبشموس المعارف يستضيئون في نهارهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: 22])). انتهى كلام القطب الشاذلي ﷺ.

وقال أبو عبد الله القرشي ﷺ: ((حقيقة المحبَّة: أن تهب كلك لمن أحببت حتى لا يبقى منه شيء)).

وقال أبو الحسين الوراق: ((المحبَّة: سرور بالله من شدَّة المحبَّة له، والمحبَّة في القلب نار تحرق كل دنس)).

وقال بعضهم: ((من ادَّعى محبَّة الله من غير تورع محارمه فهو كذاب، ومن ادَّعى محبَّة الجنة من غير إنفاق ملكه فهو كذاب، ومن ادَّعى حبَّ رسول الله ﷺ من غير حب الفقراء فهو كذاب))، وكانت رابعة تُنشد:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا محال في الفعال بديع
إن كنت صادقًا لأطعته ... إن المحبّ لمن يحبّ مطيع

وقال بعض الشعراء في هذا المنزع:

قالت: وقد سألت عن حال عاشقها ... لله صفه ولا تنقص ولا تزد
فقلت: لو كان رهن الموت من ظمإ ... وقلت: قف على ورود الماء لم يرد

وقال آخر:

ولو عذبتني في النار حتمًا ... دخلت مطاوعًا وسط الجحيم

وقال آخر:

إذا كان الجحيم رضاك عنّي ... فما ذاك الجحيم سوى نعيم

إن كان سفك دمي أقصر مرادكم فما غلت نظرة منكم بسفك دم

وقال سمنون [المحبِّ] ﷺ: ((ذهب المحبون لله بشرف الدنيا والآخرة لأن النبي ﷺ قال: «**المَرءُ مَع مَن أحبَّ**»[1] فهو مع الله تعالى)).

وقال أبو يعقوب السوسي: ((لا تصلح المحبَّة حتى تخرج عن رؤية المحبَّة إلى رؤية المحبوب بفناء علم المحبَّة، من حيث كان المحبوب في الغيب، ولم يكن هذا بالمحبَّة، فإذا خرج المحبُّ إلى هذه كان محبًّا من غير محبَّة)).

وسئل الشبلي عن المحبَّة فقال: ((كأس له وهج إذا استقرَّ في الحواس وسكن في النفوس تلاشت)).

وقيل: للمحبَّة ظاهر وباطن:

ظاهرها: اتباع رضى المحبوب.

وباطنها: أن يكون مفتونًا بالحبيب عن كل شيء، فلا تبقى فيه باقية لغيره ولا لنفسه.

وقال في (المعارف): كان رسول الله ﷺ يدعو: «**اللهم اجعَل حُبَّكَ أحبَّ إليَّ من نَفسي وسَمعي وبَصري وأَهلي ومَالي، ومن المَاء البَارد**»[2]، فكأنَّ رسول الله ﷺ طلب بحكم العلم والحيلة تتعاضده بضد العلم، مثل أن يكون راضيًا، والحيلة قد تنكره، ويكون النظر إلى الانقياد بالعلم، وإلى الاستقصاء بالحيلة، فقد يحب الله ورسوله بحكم الإيمان، ويحب الأهل والولد بحكم الصبغ المراد منه، فأشار إلى أن محبَّة العوام بالعلم والإيمان بالغيب، ومحبَّة الخواص بالذوق على نعت مشاهدة الحبيب، والله تعالى أعلم.

وقوله: وليس يعلم في القلب إلا هو هكذا في جلِّ النسخ بعد السطر، أي: لا يعلم ما في قلبي من الشغف والمحبَّة إلا المحبوب.

---

(1) الحديث بتمامه: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، كيف تقول في رجل أحبَّ قومًا ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ: «**المَرءُ مَع مَن أحبَّ**». أخرجه البخاري برقم: (6168)، ومسلم برقم: (2640).

(2) رواه الترمذي برقم: (3490).

وفي بعض النسخ بعد السطر، أي: لا يعلم ما في قلبي من الشغف والمحبَّة إلا المحبوب.

وفي بعض النسخ: وفي الأغاليط سرٌّ رقَّ معناه، يشير إلى مقام الإخلاص، فالسر الذي خفي معناه هو الإخلاص، إذ لا يتحقق ذوقًا إلا بإظهار ما ينافيه من الأغاليط، ومرجعها إلى تخريب الظاهر، إذ بقدر ما يخرب الظاهر يعمر الباطن، وبقدر ما يعمر الظاهر يخرب الباطن، وبقدر ما يزين الظاهر يقبح الباطن، وبالعكس يتنور الظاهر بالتأنق في الثياب وتحسين الهيئة، وبه يتظلم الباطن، وهذا مجرب عند أهل الفن، لا ينكره إلا الجاهل بالطريق.

والإخلاص: إفراد الحق بالطاعة بالعقل وهو أن يريد بطاعته القرب إلى الله تعالى دون شيء آخر؛ من تصنع لمخلوق أو احتساب محمدة عند الناس، ومحبَّة مدح الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى، قاله القشيري.

وأحسن منه تفسير الحقِّ تعالى في الحديث القدسي قال الحسن: سألت حذيفة عن الإخلاص؟ فقال: سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ما هو؟ فقال: سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص؟ فقال: سألت رب العزة عن الإخلاص ما هو؟ فقال: «**سِرٌّ من أسراري، أَودعته قَلب من أَحببته مِن عبَادي**»[1].

وقال الجنيد رضي الله عنه: ((الإخلاص سرٌّ بين الله تعالى وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه، ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيبطله، وله درجات:

إخلاص العوام: وهو إفراد الحق بالطاعة مع ملاحظة الجزاء في الدنيا والآخرة.

وإخلاص الخواص: وهو إفراد الحق بالطاعة مع ملاحظة الجزاء الأخروي فقط.

---

(1) الحديث ذكره الإمام الغزالي في الإحياء؛ قال الحافظ العراقي في المغني: ((حديث الحسن مرسلًا [لأنَّ الحسن لم يسمع من حذيفة ولم يلاقه كما صرح المحدثون]، رُوّيناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلًا يقول كل واحد من رواته: سألت فلانًا عن الإخلاص فقال: وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن حذيفة عن النبي ﷺ عن جبريل عن الله تعالى، وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك، وهما من الزُّهَّاد، ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف)). الإحياء باب الإخلاص (161/6).

وإخلاص خواص الخواص: وهو إفراد الحق بالطاعة مع الغيبة؛ بل محبَّة وتعظيمًا وعبوديةً)).

قال مكحول ﷺ: ((ما أخلص عبد أربعين يومًا إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه)) وهو موقوف عليه، والله أعلم.

ويوجد في بعض النسخ: أريهم أنني بغيره كلف أي: أظهر للناس أنني بغير المحبوب كلف؛ أي: مولع ومتكلف به، ومشغول بمحبته، وليس يعلم ما في قلبي من محبَّة الحبيب إلا هو، لأنني لما عرفته، وكشف الحجاب بيني وبينه، قلت: لا يحجبني عنه شيء من تجلياته، فيظهر للناس أني أشاهد الخلق، ونعظمهم، ونتأدب معهم، وأنا في الباطن لا نُشاهد إلا الملك الحق، ولا نتأدب إلا معه، ولا نتكلّف إلا به، فلله الحمد وله الشكر.

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ: ((إنا لننظر إلى الله ببصر الإيمان والإيقان فأغنانا ذلك عن الدليل والبرهان، وإنا لا نرى أحدًا من الخلق، فهل في الوجود سوى الملك الحق، فإن كان ولا بُدَّ كالهباء في الهوى إن فتشته لم تجده شيئًا))، وبالله التوفيق.

[حياة الفرح والسرور بالله تعالى]

ثم قال ﷺ:

قالوا: أتنسى الذي تهوى؟ فقلت لهم: يا قومي من هو روحي كيف أنساه!

وكيف أنساه والأشيا به حسنت من العجائب ينسى العبد مولاه!

يقول ﷺ: قال لي قومي: أتنسى المحبوب الذي تهواه وتعشقه حتى تغيب عن ذكره ومشاهدة سرِّه فقلت لهم: يا قومي، من هو روحي، وبه قوامي ونشأتي، قد سرى سرّه في سري، ونوره في كلية ذاتي، وتخللت محبته جميع أجزائي، كيف أنساه وأغيب عنه، وكيف أيضًا أنساه وأغيب عنه، والأشياء كلها به قامت، وبنور جماله حسنت وابتهجت،

فما ظهر في الكونين إلا نور بهائه وجماله، فليس في الوجود قبيح ولا بشع؛ لأن الوجود كله بقدرة الحكيم البديع، وإلى هذا أشار صاحب (العينية)[1] ﷺ بقوله:

وكل قبيح إن نسبت لحسنه ... أتتك معاني الحسن فيه تسارع

يكمل نقصان القبيح جماله ... فما ثم نقصان ولا ثم باشع

ثم تعجب نسيان العبد مولاه وهو معه أقرب إليه من حبل الوريد، فمن أعجب العجائب أن يكون الحقُّ قائمًا بأمر عبده، لا ينساه من إحسانه ورفده، والعبد غافل عن ذكره، مشغول بذكر غيره، فالواجب على العبد استفراغ طاقته وجهده في ذكر سيده ومشاهدة إحسانه ورفده، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: 152]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: 69]، وقد رأيت أحاديث وأخبار في الترغيب في ذكر الله والتفكر في عظمته، فلا نطيل بسردها لأنها مقررة في محلها من المطولات، وبالله التوفيق.

[مشهد العبودية والمحبَّة لله تعالى]

ثم صرح بحاله مع محبوبه وهو الاستغراق في شهوده، فقال ﷺ:

ما غاب عني ولكن لست أبصره ... إلا وقلت جهارًا: قل هو الله

يقول ﷺ: ما غاب عنّي محبوبي طرفة عين لأنه أقرب إليَّ من كل شيء؛ وبه حياتي، وقيام ذاتي كما قال ابن الفارض ﷺ:

أنتم شموسي وعين ذاتي ... ووجهكم قبلة السجود

فمحبوبي لا يغيب عنّي قطّ ولكن لست أبصره، وأشاهده في مرائي جماله، وتجليات ذاته، إلا وقلت جهارًا بلسان الحال: قل هو الله، إذ لا نشاهد سواه، ولا نرى إلا إياه؛

(1) صاحب العينية: هو عبد الكريم الجيلي، وقصيدته تُسمى: (النادرات العينية في البادرات الغيبية)، مطبوعة بشرح النابلسي، ت: يوسف زيدان.

لأنني محجوب بالجمع عن الفرق، وبشهود المؤثر على الأثر، وإن كان ولا بُدَّ من رؤية الأثر، فيراه قائمًا به، ونورًا من أنواره، لا وجود له معه لثبوت أحديته، فالأكوان ثابتةً بإثباته، ممحوةً بأحدية ذاته:

من لا وجود لذاته من ذاته فوجوده لولاه عين محال
فالعارفون فنوا ولما لم يشهدوا شيئًا سوى المتكبر المتعالي
ورأوا سواه على الحقيقة هالكًا في الحال والماضي والاستقبال

قال القطب ابن مشيش لأبي الحسن الشاذلي رضي الله عنهما: ((يا أبا الحسن، حدد بصر الإيمان تجد الله في كل شيء، وعند كل شيء، ومع كل شيء، وقبل كل شيء، وبعد كل شيء، وفوق كل شيء، وتحت كل شيء، وقريبًا من كل شيء، ومحيطًا بكل شيء، بقرب هو وصفه، وبحيطة هي نعته، وعُد عن الظرفية والحدود، وعن الأماكن والجهات، وعن الصحبة والقرب في المسافات، وعن الدور بالمخلوقات، وامحق الكل بوصفه الأول والآخر، والظاهر والباطن؛ وهو هو، هو، كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان))، وأشار بقوله: وعُد... إلخ؛ إلى أن ما جرى في كلامه من الظروف ليست بزمانية ولا مكانية لأنها من جملة الأكوان، وإنما هي أمور ذوقية، فاعتقد كمال التنزيه، وبطلان التشبيه، وتمسك بقول الله عز وجل: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: 11]، وسلّم ذلك لأهله فإنهم على بصيرة فيما رمزوا إليه فيما ذاقوه ووجدوه، بل هي من محض الإيمان، وخالص العرفان؛ وهو حقيقة التوحيد، وصفو الإيمان؛ كما قال بعض العارفين قال بعض المحققين من العارفين: الحقُّ تعالى منزه عن الأين والجهة والكيف، ولا جسم ولا جوهر ولا عرض؛ لأنه للطفه سار في كل شيء، ولنوريته ظاهر في كل شيء، ولإطلاقه وإحاطته متكيف بكل كيف غير متقيد بذلك، ومن لم يذق هذا، ولم يشهده فهو أعمى البصيرة، محروم من مشاهدة الحق، ومن كلام الشيخ ابن الفارض:

هو الحق المحيط بكل شيء هو الرحمن ذو العرش المجيد
هو النور المبين بغير شك هو الرب المحبوب في العبيد

هو المشهود في الشاهد يبدو ... فيخفيه الشهود عن الشهيد
هو العين العيان لكل غيب ... هو المقعود في بيت القعيد
جميع العالمين له ظلال ... سجود في القريب وفي البعيد
وهذا القدر في التحقيق كاف ... فكف النفس عن طلب المزيد

ولابن عطاء الله ﷺ:

فالنور يظهر ما ترى من صورة ... إلا به وجود الكائنات بلا امترا
لكنه يخفى لفرط ظهوره ... حسًا ويدركه البصير من الورا
فإذا نظرت بعين عقلك لا تجد ... شيئًا سواه عن الذات مصورا
وإذا طلبت حقيقة من غيره ... فيزيد جهلك لا تزال معثرا

وهذه الأسرار لا يذوقها إلا من صحب أهل الفناء والبقاء، ومن لم يصحبهم فحسبه الإيمان بالغيب، والله تعالى أعلم.

[مشهد الذل والانكسار والخضوع لله تعالى]

ثم اعلم: أن من عادة الشعراء أن يتغزَّلوا في مدح الحبيب بذكر الرقبا والعواذل إذ لا تحلو المحبَّة إلا بوجودهم فمنهم: من يذكر ذلك في أول مدحه كما فعل كعب بن زهير والإمام البوصيري في (بردته) وغيرهما، ومنهم: من يستعمله في آخر مدحه، كما فعل الناظم حيث قال ﷺ:

ماذا يقول اللواحي ضل سعيهم ... وماذا تقول الأعادي زاد معناه
هل غير أني أهواه وقد صدقوا ... نعم نعم أنا أهواه وأهواه

قلت: التلاحي: هو التخاصم، وتلاحى فلان وفلان: تخاصما، واللواح: جمع لائحة أي مخاصمة، وماذا: إما أن تكون استفهامية برمتها أو ذا موصولة وما استفهامية.

يقول ﷺ على طريق التشبيب والنسيب: ماذا، أي: أي شيء تقول اللواحي في لومي وعتابي على محبَّة الحبيب، أو ما الذي تقوله العواذل والرقبا في عذلي ولومي على فرط محبتي، والتهالك في عشقي أضل الله سعيهم، وخيب قصدهم، فإنهم أرادوا سلواني من عشقي، وبعدي من حبيبي، فلا أسمع قولهم، ولا أقبل نصحهم.

وما تقول الأعادي، أي: أي شيء تقوله الأعادي والحساد في دخولهم بيني وبين محبوبي؛ بالتخليط والتخويف، فما وقع ذلك منهم إلا لما رأوا من شدَّة إقبال المحبوب عليَّ، وتقريبه إياي، واعتنائه بشأني، فالله يزيدني من تلك المعنى، ويحققني بذلك المقصد الأسنى، وهل يقولون شيئًا غير أني أهواه وأحبه، أي: لا يمكنهم أن يعيبوا عليَّ شيئًا إلا أني أحبه وأهواه، ولقد صدقوا في دعواهم، فإذا أقرَّ بذلك، وأفصح بالجواب، فنقول: نعم نعم، أنا أهواه، ثم أهواه ولا نسلو عنه أبدًا، وهذا الذي ذكره الشيخ من ذكر الخصوم والأعادي لا يشترط تحققه في الخارج، بل ذلك من فعل الشعراء، أو يسمى التغزل والتشبيب والنسيب، يحسن ذكره في أول المدح أو في أثنائه كما تقدم، ويمكن أن يقصد بذلك من يلومه على التجريد وترك الأسباب والانقطاع إلى المحبوب لا سيّما إن كان له من يتعلق به من أهل وأولاد، فإن أهل الظاهر لا يسلمون لأهل الباطن في هذا المعنى، وكذلك تخريب الظاهر، وإتلاف المال الذي يشغل الباطن، فإن غالب الناس يعيبون على من يفعل ذلك.

وقد فسر بعضهم العواذل والرقبا والأعادي: بالنفس والشيطان والهوى والدنيا؛ وكل ما يشغل عن الله، ذكره في (شرح تائية) ابن الفارض وقال: ((هذا مراد الصوفية بالعواذل والرقبا وهو حسن، ثم إن هذه العواذل وهي القواطع التي تقطع عن الله تعالى هي في الظاهر قواطع، وفي الباطن محسوسات وموصلات إلى الله تعالى))، وعلى هذا الوجه ذكرهم صاحب (الحكم العطائية) ﷺ.

فقال في شأن النفس: ((حرّك النفس عليك ليدوم إقبالك عليه)).

وقال في شأن الشيطان: ((إذا علمت أن الشيطان لا يغفل عنك فلا تغفل أنت عمن ناصيتك بيده)).

وقال في شأن الدنيا: ((إنما جعلها محلًّا للأكدار تزهيدًا لك فيها)).

وقال في شأن الناس: ((إنما الأذى عليهم كي لا تكون ساكنًا إليهم أراد أن يزعجك عن كل شيء حتى لا يشغلك عنه شيء)).

وقد كان شيخ شيخنا مولاي العربي ﷺ يقول في شأن النفس: ((إذا اشتكى له أحد بنفسه جزاها الله خيرًا عني، والله ما ربحنا إلا منها))، يعني: أنه جاهدها وريضها حتى انقادت، وأسلمت وتروحنت، فجعلت تأتيه بالعلوم والمواهب من أسرار الغيب، فإن الروح كان أصلها علامة درَّاكة، فما حجبها إلا الشهوات والعوائد التي تعودت بها حتى تظلمت فسميت نفسًا، فإذا منعت من شهواتها وعوائدها رجعت إلى أصلها، وإلى هذا المعنى أشار ابن البنا في (مباحثه) حيث قال:

ولم تزل كل نفوس الأحيا ... علامة دراكة للأشيا

وإنما تعوقها الأبدان ... والأنفس النزاع والشيطان

فكل من أذاقهم جهاده ... أظهر للقاعد خرق العادة

[محبَّة الله تعالى أفضل مقامات العارفين]

ثم قال ﷺ:

أستغفر الله إلا من محبته ... فإنها حسناتي يوم ألقاه

فإن يقولوا: بأن الحب معصية ... فالحب أحسن ما يلقى به الله

يقول ﷺ: أستغفر الله، أي: أطلب مغفرته من كل شيء يصدر منِّي قولًا وعملًا وعقدًا إلا من محبَّته فإنها لا يدخلها خلل؛ لأنها محمودة في كل حال فلا تحتاج إلى استغفار، فتقول له: الحبُّ أحسن ما يلقى به الله لقوله: «**مَن أحبَّ لقَاء الله، أحبَّ الله لقَاءه**» (1)، ولا يُحبُّ لقاء الله إلا من تمكنت محبَّة الله في قلبه.

---

(1) رواه البخاري برقم: (6142)، ومسلم برقم: (2683).

فظهر أنَّ (المحبَّة) أفضل المقامات وأكمل الحالات، فلا تفتقر إلى استغفار، ولذلك قال القطب ابن مشيش: ((واعلم: أنَّ حبَّ الله قطبٌ تدور عليه الخيرات وأصلٌ جامعٌ لجميع الكرامات))، إلى آخر كلامه في بعض وصاياه.

ثم اعلم: أنَّ هذه المحبَّة التي هي (أفضل المقامات) إنما تكون مع تمام المعرفة، إذ المحبَّة بلا معرفة قد يصدر من صاحبها سوء أدب بما يصحبها من القلق أو الإذلال في غير محلّه، فيُطرد وهو لا يشعر، بخلاف من ترقَّى إلى (مقام المعرفة) بعد كمال المحبَّة فالأدب محقَّقٌ لديه، إذ المعرفة لا تكون إلا بعد التهذيب والتأديب، فيلزمه الرضى والتسليم والصبر والتوكل وغير ذلك من المقامات، لأن المعرفة ضمته لجميع ذلك إذ لا يسلك لها إلا وقطع هذه المقامات، بخلاف المحبَّة وحدها؛ فقد توجد مع الحجاب فيكون صاحبها غير كامل كما هو شأن كثير من العباد والزهاد والعشاق، وأما المعرفة فلا تحصل إلا بعد التربية والتأديب، والتهذيب بعد التدريب والتهذيب، فصاحبها مأمونٌ من سوء الأدب في الغالب[1].

---

(1) فائدة: قال الإمام ابن القيم في مدارجه: ((**فصل**: في ذكر رسوم وحدود قيلت في المحبَّة، بحسب آثارها وشواهدها والكلام على ما يحتاج إليه منها:

الأول قيل: المحبَّة الميل الدائم بالقلب الهائم. وهذا الحد لا تمييز فيه بين المحبَّة الخاصة والمشتركة، والصحيحة والمعلولة!

الثاني: إيثار المحبوب على جميع المصحوب. وهذا حكم من أحكام المحبَّة وأثر من آثارها.

الثالث: موافقة الحبيب في المشهد والمغيب، وهذا أيضًا موجبها ومقتضاها. وهو أكمل من الحدين قبله، فإنه يتناول المحبَّة الصادقة الصحيحة خاصة، بخلاف مجرد الميل والإيثار بالإرادة، فإنه إن لم تصحبه موافقة، فمحبته معلولة!

الرابع: محو المحب لصفاته وإثبات المحبوب لذاته. وهذا أيضًا من أحكام الفناء في المحبَّة؛ أن تنمحي صفات المُحب، وتفنى في صفات محبوبه وذاته، وهذا يستدعي بيانًا أتم من هذا، لا يُدركه إلا من أفناه وارد المحبَّة عنه، وأخذه منه.

الخامس: مواطأة القلب لمرادات المحبوب. وهذا أيضًا من موجباتها وأحكامها، والمواطأة: الموافقة لمرادات المحبوب وأوامره ومراضيه.

السادس: خوف ترك الحرمة مع إقامة الخدمة. وهذا أيضًا من أعلامها وشواهدها وآثارها أن يقوم بالخدمة كما ينبغي، مع خوفه من ترك الحرمة والتعظيم.

=

=

السابع: استقلال الكثير من نفسك واستكثار القليل من حبيبك. وهذا لأبي يزيد البسطامي، وهو أيضًا من أحكامها وموجباتها وشواهدها، والمحب الصادق لو بذل لمحبوبه جميع ما يقدر عليه، لاستقله واستحيى منه، ولو ناله من محبوبه أيسر شيء، لاستكثره واستعظمه.

الثامن: استكثار القليل من جنايتك واستقلال الكثير من طاعتك. وهو قريب من الذي قبله، لكنه مخصوص بما من المحب.

التاسع: معانقة الطاعة ومباينة المخالفة. وهو لسهل بن عبد الله التستري، وهو أيضًا حكم المحبَّة وموجبها.

العاشر: دخول صفات المحبوب على البدل من صفات المحب. وهو للجنيد، وفيه غموض! ومراده: أنَّ استيلاء ذكر المحبوب وصفاته على قلب المحب، حتى لا يكون الغالب عليه إلا ذلك، ولا يكون شعوره وإحساسه في الغالب إلا بها، فيصير شعوره وإحساسه بدلا من شعوره وإحساسه بصفات نفسه، وقد يحتمل معنى أشرف من هذا، وهو تبدل صفات المحب الذميمة - التي لا توافق صفات المحبوب - بالصفات الجميلة المحبوبة التي توافق صفاته، والله أعلم.

الحادي عشر: أنْ تهب كُلَّك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء. وهو لأبي عبد الله القرشي، وهو أيضًا من موجبات المحبَّة وأحكامها. والمراد: أن تهب إرادتك وعزماتك وأفعالك ونفسك ومالك ووقتك لمن تحبه، وتجعلها حبسًا في مرضاته ومحابه، فلا تأخذ لنفسك منها إلا ما أعطاك، فتأخذه منه له.

الثاني عشر: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب. وهو للشبلي، وكمال المحبَّة يقتضي ذلك، فإنَّه ما دامت في القلب بقية لغيره ومسكن لغيره، فالمحبَّة مدخولة.

الثالث عشر: إقامة العتاب على الدوام. وهو لابن عطاء الله، وفيه غموض! ومراده: أن لا تزال عاتبًا على نفسك في مرضاة المحبوب، وأن لا ترضى له منها عملًا ولا حالًا.

الرابع عشر: أن تغار على المحبوب أنْ مدَّة مثلك. وهو للشبلي أيضًا، ومراده: احتقارك لنفسك أن يكون مثلك من مُحبيه.

الخامس عشر: إرادةٌ غُرست أغصانُها في القلب، فأثمرت الموافقة والطاعة.

السادس عشر: أن ينسى المُحب حظه في محبوبه، وينسى حوائجه إليه. وهو لأبي يعقوب السوسي، ومراده: أنَّ استيلاء سلطانها على قلبه غيبة عن حظوظه وعن حوائجه واندرجت كلها في حكم المحبَّة.

السابع عشر: مجانبة السلو على كل حال. وهو للنصرآباذي، وهو أيضًا من لوازمها وثمراتها.

الثامن عشر: توحيد المحبوب بخالص الإرادة وصدق الطلب.

=

=

التاسع عشر: سقوط كل محبَّة من القلب إلَّا محبَّة الحبيب. وهو لمحمد بن الفضل، ومراده: توحيد المحبوب بالمحبَّة.

العشرون: غض طرف القلب عما سوى المحبوب غيرة، وعن المحبوب هيبة. وهذا يحتاج إلى تبيين، أما الأول: فظاهر، وأما الثاني: فإنَّ غض طرف القلب عن المحبوب - مع كمال محبته - كالمستحيل، ولكن عند استيلاء سلطان الهيبة يقع مثل هذا، وذلك من علامات المحبَّة المقارنة للهيبة والتعظيم، وقد قيل: إنَّ هذا تفسير قول النبي: «**حُبُّكَ الشيء يُعمي ويُصم**» أي: يعمي عما سواه غيرة، وعنه هيبة، وليس هذا مراد الحديث، ولكن المراد به أن حبَّكَ للشيء يُعمي ويصم عن تأمل قبائحه ومساويه، فلا تراها ولا تسمعها، وإن كانت فيه، وليس المراد به: ذكر المحبَّة المطلوبة المتعلقة بالرب، ولا يقال في حب الرب ﷻ: حُبُّكَ الشيء، ولا يوصف صاحبها: بالعمى والصمم، ونحن لا ننكر المرتبتين المذكورتين، فإنَّ المحب قد يعمى ويُصم عن سوى محبوبه، وقد يعمى ويُصم عنه بالهيبة والإجلال، ولكن لا توصف محبَّة العبد لربه تعالى بذلك، وليس أهلها من أهل العمى والصمم، بل هم أهل الأسماع والأبصار على الحقيقة، ومن سواهم هم البكم العُمي الصم الذين لا يعقلون.

الحادي والعشرون: ميلك للشيءِ بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك وروحك ومالك، ثم موافقتك له سرًّا وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك في حبه. قال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي يقول ذلك.

الثاني والعشرون: المحبَّة نار في القلب، تحرق ما سوى مراد المحبوب، وسمعت شيخنا ابن تيمية ؒ يقول: لمتُ بعض الإباحية فقال لي ذلك، ثم قال: والكون كله مراده، فأي شيء أبغض منه؟ فقال الشيخ له: إذا كان المحبوب قد أبغض أفعالًا وأقوالًا وأقوامًا، وعاداهم، وطردهم، ولعنهم؛ فأحببتهم أنت كنت مواليًا للمحبوب أم معاديًا له؟ قال: فكأنما ألقم حجرًا، وافتضح بين أصحابه، وكان مُقَدَّمًا فيهم مشارًا إليه! وهذا الحد صحيح، وقائله إنما أراد أنها تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب الديني الأمري، الذي مدَّه ويرضاه، لا الذي قدّره وقضاه، ولكن لقلة حظ المتأخرين منهم وغيرهم من العلم وقعوا فيما وقعوا فيه من الاتحاد، والمعصوم من عصمه الله.

الثالث والعشرون: المحبَّة بذل المجهود، وترك الاعتراض على المحبوب. وهذا أيضًا من حقوقها وثمراتها وموجباتها.

الرابع والعشرون: سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبوبه، ثم السكر الذي يحصل عند المشاهدة لا يوصف، وأنشد:

فأسكر القومَ دَوْرُ الكأس بينهم ... لكنَّ سُكْري نشا من رؤية الساقي

=

=

وينبغي صون المحبَّة والحبيب عن هذه الألفاظ، التي غاية صاحبها أنْ يُعذر بصدقه وغلبة الوارد عليه، وقهره له، فمحبَّة الله أعلى وأجل من أن تضرب لها هذه الأمثال، وتُجعل عُرضةً للأفواه المتلوثة، والألفاظ المبتدعة ولكن الصادق في خفارة صدقه.

الخامس والعشرون: أن لا يؤثّر على المحبوب غيره، وأن لا يتولّى أمورك غيره.

السادس والعشرون: الدخول تحت رقّ المحبوب وعبوديته، والحرية من استرقاق ما سواه.

السابع والعشرون: المحبَّة سفر القلب في طلب المحبوب، ولهج اللسان بذكره على الدوام، قلت: أما سفر القلب في طلب المحبوب: فهو الشوق إلى لقائه، وأما لهج اللسان بذكره: فلا ريب أنَّ من أحب شيئًا، أكثر من ذكره.

الثامن والعشرون: أنَّ المحبَّة هي ما لا ينقص بالجفاء، ولا تزيد بالبرّ. وهو ليحيى بن معاذ، بل الإرادة والطلب والشوق إلى المحبوب لذاته، فلا يُنقص ذلك جفاؤه، ولا يزيده بره، وفي هذا ما فيه، فإنَّ المحبَّة الذاتية تزيد بالبرّ، ولا تنقصها زيادتها بالبرّ، وليس ذلك بعلة، ولكن مراد يحيى: أنَّ القلب قد امتلأ بالمحبَّة الذاتية، فإذا جاءه البرّ من محبوبه، لم يجد في القلب مكانًا خاليًا من حبه يشغله محبَّة البرّ، بل كانت تلك المحبَّة قد استحقت عليه بالذات بلا سبب. ومع هذا فلا يُزيل الوهم، فإنَّ المحبَّة لا نهاية لها، وكلما قويت المعرفة والبر قويت المحبَّة، ولا نهاية لكمال المحبوب ولا بره، فلا نهاية لمحبته، بل لو اجتمعت محبَّة الخلق كلهم وكانت على قلب رجل واحد منهم لكان ذلك دون ما يستحقه الرب ﷻ، ولهذا لا تسمى محبَّة العبد لربه عشقًا - كما سيأتي - لأنه إفراط المحبَّة، والعبد لا يصل في محبَّة الله إلى حدّ الإفراط البتة، والله أعلم.

التاسع والعشرون: المحبَّة أن يكون كلُّك بالمحبوب مشغولًا وكلُّك له مبذولًا.

الثلاثون: وهو من أجمع ما قيل فيها، قال أبو بكر الكتاني ؒ: جرت مسألة في المحبَّة بمكة أعزها الله تعالى - أيام الموسم - فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سنًّا، فقالوا: هات ما عِندَكَ يا عراقي؟ فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبدٌ ذاهب عن نفسه، متصلٌ بذكر ربه، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحرقت قلبه أنوار هيبته، وصفا شُربُه من كأس وُدِّه، وانكشف له الجبّار من أستار غيبه، فإنْ تكلَّم فبالله، وإنْ نطق فعن الله، وإنْ تحرَّكَ فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى الشيوخ وقالوا: ما على هذا مزيد، جزاك الله يا تاج العارفين.

فصل: في الأسباب الجالبة للمحبَّة، والموجبة لها وهي عشرة:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أُريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد ويشرحه، ليتفهم مراد صاحبه منه.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنَّها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبَّة.

=

[الخاتمةُ نَسألُ اللهَ حُسنها]

منحنا الله من معرفته الكاملة أوفر نصيب، إنه سميع قريب مجيب، بجاه سيدنا ومولانا محمد، أفضلُ كلَّ محبٍّ وحبيبٍ، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وعترته وأحزابه، وسلّم تسليمًا، والحمد لله رب العالمين.

❖ ❖ ❖

=

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب، والعمل والحال، فنصيبه من المحبَّة على قدر نصيبه من هذا الذكر.

الرابع: إيثار محابّه على محابّك عند غلبات الهوى، والتَّسنمُ إلى محابّه، وإنْ صعب المرتقى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها، وتقلّبه في رياض هذه المعرفة ومباديها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحَبَّهُ لا محالة.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع: وهو من أعجبها انكسار القلب بكليّته بين يدي الله تعالى، وليس في التعبير عن هذا المعنى غَيْرُ الأسماء والعبارات.

الثامن: الخلوة به وقت النزول الإلهي، لمناجاته وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أنَّ فيه مزيدًا لحالك، ومنفعةً لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ.

فمن هذه الأسباب (العشرة) وصل المحبّون إلى منازل المحبَّة، ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك كلّه أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة)). مدارج السالكين (524/2 - 530).

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

(2)

تجريد أخبار الطائفة الرفاعية من كتاب (تفاح الأرواح ومفتاح الأرباح)

(3)

النور الهادي
المُثبتُ من كرامة الأولياء ما يُرغم أُنوف الأعادي
الشاهِدُ بصدقه من المؤمنين الرائح والغادي

(4)

تجريد الأخبار الرفاعية من كتاب (خلاصة المفاخر)

(5)

جواب المراعي لسلف الشيخين عبد القادر وابن الرفاعي

(6)

تذكرة محمد بن صالح الرومي الرفاعي

(7)

شرح قصيدة (يا من تعاظم) للإمام أحمد الرفاعي